14 me Année No. 694

الرسالة
مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH
Revue Hebdomadaire Littéraire
Scientifique et Artistique

Lundi — 21 — 10 — 1946

بدل الاشتراك عن سنة
ص
١٠٠ فى مصر والسودان
١٥٠ فى سائر الممالك الأخرى
ثمن العدد ٢٠ مليما

الإعلانات
يتفق عليها مع الإدارة

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الإدارة
دار الرسالة بشارع السلطان حسين
رقم ٨١ — عابدين — القاهرة
تليفون رقم ٤٢٣٩٠

العـــدد ٦٩٤ « القاهرة فى يوم الإثنين ٢٦ ذو القعدة سنة ١٣٦٥ — ٢١ أكتوبر سنة ١٩٤٦ » السنة الرابعة عشرة

الضمير الأمريكانى . . . !

وقضـــية فلسطين

للأستاذ ســـيد قطب

أخيراً يتكشف ضمير « الولايات المتحدة » الذى تعلقت به أنظار كثيرة فى الشرق، وحسبته شيئاً آخر غير الضمير الإنجليزى والضمير الفرنسى، وسائر الضمائر الأوربية المعروفة

أخيراً يتكشف ضمير « الولايات المتحدة » هذا، فإذا هو — ككل شيء أمريكى آخر — « ضمير أمريكانى » !

ونحن نعرف فى مصر « اللعبة الأمريكانية » ونعرف أنها « نصب » فى « نصب » ، وقد حرمت هذه اللعبة لما فيها من غش وخداع . و « الضمير الأمريكانى » الذى تكشف عنه تصريحات ترومان لا يرتفع كثيراً عن هذه اللعبة الممنوعة !

ولقد كان الكثيرون مخدوعين فى هذا الضمير ؛ لأن الشرق لم يحتك طويلا بأمريكا، كما احتك بانجلترا وفرنسا وهولاندا، فلما بدأ الاحتكاك فى مسألة فلسطين تكشف هذا الخداع عن ذلك الضمير المدخول، الذى يقامر بمصائر الشعوب، وبحقوق بنى الإنسان، ليشترى بضعة أصوات فى الانتخاب .

وكلهم سواء أولئك الغربيون : ضمير متعفن، وحضارة زائفة، وخدعة ضخمة اسمها « الديمقراطية » يؤمن بها المخدوعون !

تلك كانت عقيدتى فى الجميع، فى الوقت الذى كان بعض الناس يحسن الظن بفريق ويسىء الظن بفريق، وكانت أمريكا فى الغالب هى التى تتمتع بحسن الظن من الكثيرين

فها هى ذى أمريكا تتكشف للجميع . هذا هو « ترومان » يكشف عن « الضمير الأمريكانى » فى حقيقته، فإذا هو نفس ضمير كل غربى، ضمير متعفن، لا يثق به إلا المخدوعون !

إنهم جميعاً يصدرون عن مصدر واحد، هو تلك الحضارة المادية التى لا قلب لها ولا ضمير . تلك الحضارة التى لا تسمع إلا صوت الآلات، ولا تتحدث إلا بلسان التجارة، ولا تنظر إلا بعين المرابى، والتى تقيس الإنسانية كلها بهذه المقاييس .

كم ذا أكره أولئك الغربيين وأحتقرهم ! كلهم جميعاً بلا استثناء : الإنجليز، الفرنسيون، الهولنديون، وأخيراً الأمريكان الذين كانوا موضع الثقة من الكثيرين .

ولكنى لا أكره هؤلاء وحدهم، ولا أحتقر هؤلاء وحدهم . إنما أكره وأحتقر أولئك المصريين، وأولئك العرب، الذين لا يزالون يثقون بالضمير الغربى عامة، وضمير الاستعمار على وجه الخصوص .

إنها الجريمة . تلك التى يقترفونها كل يوم فى حق شعوبهم المسكينة . جريمة التخدير والتغفيل، وإنامة الأعصاب على

الأذى ، وهدهدة الآمال الباطلة ، والأماني الخادعة ؛ في ذلك الضمير المأفون .

يقول نبي الإسلام الكريم : « لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين » ، وها نحن أولاء نلدغ من الجحر الواحد مرات ، ثم نعود في كل مرة إلى هذا الجحر نفسه مغمضي الأعين نتطلب « الشهد » من جحور الأفاعي . ولا نجرب مرة واحدة أن نحطم هذه الجحور وأن ندوس هذه الأفاعي ، وأن ننفض عن نفوسنا ذلك الوهم الذي يقودنا المرة بعد المرة إلى تلك الجحور !

إنها الجريمة . تلك التي نعاودها مرة بعد مرة . الجريمة في حق النفس ، والجريمة في حق الوطن ، والجريمة في حق العقيدة . إنها الغفلة التي لا يستحق صاحبها الاحترام ، وهو يشهد على نفسه بالتغفيل !

ولكن من الحق أن لا نصم الشعوب العربية بهذه الوصمة . إن هذه الشعوب لأذكى وأشد حمية من أن ترضى لنفسها بالهوان ولكنها تلك الحفنة من ساسة الجيل الماضي في مصر وبعض البلاد العربية . تلك الحفنة الرخوة المسنة الضعيفة المتهالكة ، المهدودة الأعصاب ، لا تقدر على الكفاح ، ولا تدع الشعوب تكافح ، لأن أنانيتها الأثرة تمسكها عن الانسحاب في الميدان وتركه للقادرين !

هذه الحفنة من ساسة الجيل الماضي هي التي اخترعت كلمات : المفاوضات ، والمحادثات ، والمؤتمرات ... لماذا ؟ لأنها وسيلة سهلة لا تكلف شيئاً ، وتضمن كراسي الحكم والسلطة فترة من الزمان . وكلما همت الشعوب أن تسلك طريقها ، وأن تواجه المستعمرين بذاتها ، حال هؤلاء بينها وبين المستعمرين ، ووقفوا من دونهم يصارعون الشعوب ، وتصارعهم الشعوب . فإذا أتيهم الصراع مع شعوبهم راحوا يبثون في الأمة روح الثقة بالمستعمرين ، وراحوا يشيعون الآمال الخادعة في هذا الضمير المدخول ! !

تلك هي القصة . قصة الجحور والأفاعي .. وقصة اللدغ المتكرر من هذه الجحور . وإنها لمأساة ، ولكن من العدل أن نبرىء منها الشعوب العربية ؛ فلا تؤخذ بجريرة حفنة من الساسة الضعفاء المرضى المتهالكين !

والضمير الأمريكاني !

لقد كان الكثيرون يفهمون أنه شيء آخر غير الضمير الأوربي . فأراد الله — ولعله لخير هذه الأمة العربية المنكوبة — أن يكشف عن ذلك الضمير ... إنه ضمير مادي ، ضمير الآلة التي لا تحس ، وضمير التاجر الذي لا يتورع ، ولا يهمه حق ، ولا عدل ، ولا حياء .

وهل تملك تلك الحضارة الآلية أن تنشيء إلا ضميراً من هذا القبيل ؟

ليست المسألة مسألة جنس ولا دولة . فليس الأمريكان خيراً من الإنجليز ، وليس الانجليز خيراً من الفرنسيين ، وليس الفرنسيون خيراً من الهولنديين ... كلهم أبناء حضارة واحدة . حضارة مادية بغيضة لا قلب لها ولا ضمير . حضارة تأخذ ولا تعطي ، وتجرح ولا تأسو . حضارة أنانية صغيرة مهما بدت من الخارج ضخمة ذات بريق وضجيج !

إنها حضارة زائفة لأنها لم تقدم للانسانية زاداً من الروحية ، ولم تحاول رفع الآدمية عن قانون الوحوش . وهل تطبق هذه الحضارة مع شعوب الأرض المنكوبة إلا قانون الوحوش ؟

ثم يوجد بين أمم الشرق غافلون أو خادعون يثقون بأصحاب هذه الحضارة ، ويراودون شعوبهم على الثقة بذلك الضمير ، ويثبطون عزائمهم عن الجهاد الحاسم ، والكفاح المثمر ، في أنسب الظروف !

وبين ضجيج الآلات يرتفع بين آن وآخر صوت إنساني خافت في تلك الربوع : ينادي بالعودة إلى الله ، كذلك الصوت الذي أرسله الكردينال جريفان في انجلترا منذ أيام ، حين ألقى بكتدرائية وستمنستر عظة دينية فقال :

« لقد أبعد الله عن ميثاق هيئة الأمم المتحدة . وهذا هو السبب في أن الأمم المتحدة لم تستطع إلى اليوم أن تصبح « متحدة » فعلا » .

« وإنه لينبغي أن يكون لله ومبادئه القائمة على الإحسان والعدالة مكان في الشئون الدولية حتى تصبح الحرية حقيقة في العالم بأسره ويعيش الإنسان في ظل السلام والأمن » .

ولكنه صوت خافت لا يسمع في ضجيج الآلات التي

اسلمى يا مصر ... !

للأستاذ محمود محمد شاكر

ظللتُ سنوات معتزلاً أو كالمعتزل ، وما اعتزلتُ إلا لأن الحياة أرادتنى على ذلك فأطعتها ، وليتنى ما فعلتُ ! ثم جاءت أيام فهزّتنى حتى كادت تقتلعُ جذور الحياة من أغمض أعماقها فى نفسى وفى قلبى وفى سائر بنيانى وحواسّى ، فانتبهت كالذاهل المغمور وأنا لا أدرى أحىٌّ أنا أم ميت ، وإن كان لم يشعر بما أشعر به إلا رجلٌ أو رجلان أدركا ما أنا فيه من مِحنة وشقاء . ثم انجلت الغمة وارتفعت الغشاوة ، وبدأتُ أرى الدنيا كما ينبغى لمثلى أن يراها ، فأقبلتُ عليها أتفحصها كأنى أقرأ تاريخاً جديداً لم يكن لى به علم ولا خَبر . ومن يومئذ آثرت أن أُغفل شأن هذه الشعرات البيض التى تلتمع على فودىَّ نذيراً وبشيراً ، وقلت لنفسى : كذب والله علىُّ بن جبلة الخزاعى ، فإنى لأجد هذه الشعرات البيض أخفُّ على قلبى محملاً وأشهى إلى نفسى من كل ما استمتعت به فى صدر شبابى ، وكيف أشجَى بشىء قد جعله الله بديلا من جنون الصِّبا وعُرَامِ الشباب . وأنا أسوق هنا أبيات علىّ بن جبلة ، وإن كان لا حاجة للمقال بذكرها ، لأنى أعتدُّها من أجود الشعر وأرْصنه وأحسنه تمثيلا لمقدم الشيب ، وأدقه تصويراً لإحساس الفزع الذى تتجرَّعه النفوس الشاعرة فى يوم الكريهة — يوم المشيب . قال يذكر الشيب وقد بلغ الأربعين :

ألقى عصـــاه ، وأرْخى من عمامته
وقال : ضَيفٌ . فقلت : الشيبُ؟ قال : أجلْ!
فقلتُ : أخطأت دار الحىّ ! قال : ولِمْ ؟
مضتْ لك الأربعون التِمّ ! ثم نزَلْ
فما شَجِيتُ بشىء ما شَجِيتُ به ،
كأنما اعتمَّ منه مَفْرِقى بجَبَـلْ

ولستُ أنكر أن عُلوَّ السن بالمرء أمر ينبغى أن يلقى له باله ويتمهده حتى لا يؤخذ على مهوة وفى غفلة ، وأن الشيبَ هو النذير العريان — ولكن ما بالشيبِ من عارٍ ، فنحن إنما خلقنا

تغنى على صوت الضمير ، ونغمة مبحوحة لا تُسمع بين صراخ المطامع ، وعواء الشهوات ، فى ذلك العالم الهائج الشعور !

والآن . أيها الشرق . ماذا تريد ؟

فأما إن كنت تبغى الخلاص من براثن الوحش الغربى . فهناك طريق واحد لا تتشعب فيه المسالك . فهو أقرب طريق ... اعرف نفسك ، وراجع قواك ، واستعد للصراع ، وابدأ فى الكفاح ، ولا تستمع إلى صوت خادع يوسوس لك بالثقة فى ضمير الغرب المدخول .

وأما إذا كنت تبغى الراحة مع ذلك الجيل المكدود المهدود من الساسة المترفين الناعمين ، فأمامك طرق كثيرة ذات شعب ومسالك ، وذات منعرجات ودروب . هناك المفاوضة ، والمحادثة ، وجس النبض ، واستطلاع الآراء . وهناك الدبلوماسية الناعمة الرقيقة ، والكلمات الرقيقة الظريفة ، وهناك الانتظار الذى لا ينتهى ، والاستجداء الذى لا يغنى . وهناك المؤتمرات الحافلة والموائد المستديرة ، وهناك الكتب البيض ، والكتب الزرق ، والكتب الخضر ، وما لا ينتهى من الطرق والمنعرجات والدروب !

والحمد لله — أيها الشرق — لقد تكشف لك القناع عن آخر ضمير « الضمير الأمريكانى » الذى كانت تتعلق به الأنظار ، أنظار الغافلين والخادعين !!!

والحمد لله — أيها الشرق — إن شمسك الجديدة فى شروق ، وشمس هذا الغرب الفاجر فى غروب . وإنك تملك من الرصيد الروحى ، ومن ميراثك القديم ، ما لا يملكه هذا الغرب المتطاحن الذى يأكل بعضه بعضاً كالوحوش لأنه يحكِّم قانون الغابة فيما يشجر بينه من شقاق لا ينتهى ، وهل ينتهى الشقاق فى الغابة بين الوحوش .

إنها الفرصة السانحة — أيها الشرق — للخلاص . فانفض عنك رجال الماضى الضعفاء المهوكين . وابرز بنفسك للميدان ، فقضايا الشعوب فى هذه الأيام لا بد أن تعالجها الشعوب .

وما قضية فلسطين إلا قضية كل شعب عربى ، بل كل شعب شرقى . إنها الصراع بين الشرق الناهض ، والغرب المتوحش . وبين شريعة الله للانسان وشريعة الغاب للوحوش .

سيد قطب

لنحيا ونموت : فلتكن حياتنا كلها كما بدأتْ جهاداً متصلا جريئاً فى سبيل الغاية التى نفخ الله فينا من أجلها الروح .
وقبيح بامرىء علمته الأيام ووعظته الأُسَى منذ كان أبوه الشيخ آدم إلى يوم الناس هذا — أن يجزَع أشفَّ جزَعٍ من منهل لم ينج سابق من وُروده ، ولن ينجوَ من وروده لاحق .

وليت شعرى ماذا يضيرنى من شيبةٍ فى شعرات ، إذا كان قلبى لا يزال غضًّا جديداً كأنه ابن الأمس القريب ؟ ولو قد كان ذلك شائرى لقد هانت الحياة هوَانًا يجعلها أسخف وأخفّ وأنأل من أن أحفل بها أقل حفل . وكذلك عقدت عزمى على أن أضربَ فى مسالك الحياة حيث لا يعوقنى وقار غثٌّ ، ولا حنبلية متزمّتة ، وحيث أخبرُ الحياة على وجهها الذى هى عليه اليوم ، لأعرف ما الذى ستكون عليه غداً . فأسرعت إلى حلقات الشباب ممن تجاوزوا العشرين وأشرفوا على الثلاثين ، لأرى كيف يفكرون ، وأنظر كيف يعملون ، وأعرف ماذا يدبرون ، وأعلم أين يستقبلون فرأيت ونظرت وعرفت وعلمت ، فأشفقتُ وأمّلتُ ، وخفتُ ورجوتُ ، ولكنى على ثقة من أن رحمة الله أوسع من أن تضيق بأمة ضلّت فى بيداء هذه الحياة ، وقد خرجت تضرب فى جوانبها مطموسة البصر إلا ماشاء الله .

كان من أهم ما شغلنى أن أسمع ماذا يقولون عما يشغل الناس جميعاً فى هذه الأيام ، وأن أناقشهم فيما يقولون حتى أعرف خبء نفوسهم وضمائرهم ، وأن أنقل ما استطعت شيئاً مما يعتلج فى هذه القلوب الشابة التى تريد الحياة الحرة الكريمة — أى تريد الفطرة التى فطر الله الناس عليها . وينبغى لكل صاحب قلم أن يحرص أشد الحرص على بيان ما يرى وما يُراقب ، فإن الجيل الماضى الذى صارت إلى يديه مقاليد الحكم فى مصر غافل كل الغفلة عن الآمال والآلام التى تساور القلوب المصرية الشابة ، وجاهل كل الجهل بالمولود الجديد الذى ولد فى أرض مصر وشبّ ونشأ واستوى وكاد يبلغ مبالغ الرجال . يقول قائل الشباب :

« لقد خرجت مصر كلها ، عالمها وجاهلها وغنيها وفقيرها ، تنادى يوماً ما باسم « الجلاء » وباسم « وحدة وادى النيل من منبعه إلى مصبه » وباسم البلد الواحد الذى هو « مصر والسودان » . والشعوب أو الجماهير إن شئت ، لا تعرف تفاصيل التاريخ ولا يهمها أن تعرف ، بل هى تحس وتدرك وتتمنى وتسعى وتفعل كل شىء بالإلهام الذى تسدّده الفطرة المستقيمة ، وهذه الفطرة المستقيمة إذا نظرت إلى شىء استوعبت لُبّه وطرحت نُفايته .
ولقد نظر الشعب المصرى بفطرته المستقيمة فرأى دولة طاغية تحتل سماء بلاده وأرضها وبحارها ، بل تحتل أرزاقها المقسومة لأهلها من طعام وشراب ، وتشاركها فى نسمات الهواء بل تضيق عليها أيضاً ، وتحرمها النفحة بعد النفحة من هذه النسمات .
وإذن فهى تمنع عنها ما هو مباح للوحوش فى مساربها ، والبهائم فى مراعيها ، والطير فى مسابحها . وإذن فلا بد من أن تظفر بما يظفر به أدنأ الخلائق وأهونها على الناس وعلى الله ربّها وربهم .
وإذن فالشعب لن يعرف إلا كلمة واحدة هى : « الجلاء » ، ولا ينادى إلا بشىء واحد هو : « اخرج من بلادى أيها الغاصب » ، ولا يعرف من التاريخ ولا من السياسة ولا من البراعة والحذق فى الدهاء إلا أن هذا غاصب واقف بالمرصاد يقتاله ويغتال أسباب حياته ، ويرى به فى الرغام ليعيش هو فى رغد وفى بحبوحة .

« قام الشعب فأسمع من كانت له أذنان ، فإذا فئة من محترفى السياسة ، ومن كل محتال عليم اللسان ، ومن كل وجيه زيّنه ماله وغناه ، ومن كل ذى صيت رفعته الأقدار بالحق أو بالباطل — قد هبّوا جميعاً مع الشعب يقولون بمثل الذى يقول ، فظن الشعب أنهم قد صدقوا بعد ماض كذَبَ على التاريخ وعليهم ، فرضى عنهم وأعانهم ، ولكن لم يلبث إلا قليلا حتى رأى الوادى يموج عليه بالحيّات والأفاعى والعقارب ، وكل لدّاغ ونفّاث وغدّار ، فانتبه فزعاً يطلبُ النجاة مما تورط فيه من ثقة بأقوام لم ينالوا يوماً ما ثقته ، ولاحمّلهم أمانته ، ولارضى عن أعمالهم ، ولا سلّم إليهم مقاليده إلا مرغماً أو مغرَّراً أو مخدوعاً . ثم بقى الشعب يترقب نهاية هذه المفاوضات العجيبة التى نالت فيها مصر كل شىء إلا الجلاء ، وحازت كل خير إلا الاستقلال ، ورأت كل عجيبة إلا عجيبة ارتحال الجيوش البريطانية ذات الزىّ العسكرى أو الزىّ المدنىّ » .

ويقول قائل الشباب : « إننى لأعرف تاريخ القضية المصرية على الوجه المعقد الذى يدلَّسُ به الساسة علينا ، ويدخلون به المخافة والذعر فى قلوبنا . لا أعرفُ من تاريخ هذه القضية إلا أن بلادى كانت توشك أن تكون قُبيل سنة ١٨٨٢ إحدى الدول العظمى فى العالم ، ثم إذا بأوربة كلها تتألّبُ على هلاكها ، وقتلها ، والولوغ فى دمها بتحريض دولة واحدة قد امتلأ قلبها جشعاً وحقداً . فلما ظفرت بما أرادت ، ذادَتْ كل دولة عن

طريقها ، ورمت مصر غدراً وخيانة فاحتلتها في سنة ١٨٨٢ ، وحسدتها الدول ، وخافت مغبة احتلالها لأرض مصر ، فتألبت عليها وطالبتها بالخروج منها ، فوعدت أن تجلو عن أرض مصر جلاء ناجزاً بعد أن تستقرّ الأمور ويتوطّد سلطان العرش المزعزع ! وقامت مصر تطالب بالجلاء فوعدت أيضاً بالجلاء ، وظلت بعد ذلك تمد وتمد وتمد وهي لا تمل وعداً ولا تحققه ، إلى أن كانت سنة ١٩٤٦ ، فإذا هي تعلن الجلاء إعلاناً تاماً صريحاً بيّناً واضحاً ناجزاً سريعاً ، وتبدأ تجلو ، ولكن من غرفة إلى غرفة ، ومن سرير إلى سرير ، ولكنها لا تخرج من باب الدار إلى قمّ الطريق .

« ثم إننا نرى هذه الفئة التي اختالت في ثياب « الزعامة » وبجدتها الصحافة وسمتها باسم «الزعامة» قد دخلت في المفاوضات بينها وبين البريطانيين باسم مصر ، ومصر منها براء ، فإذا بريطانيا تزعم للشعب أنها جلت عن مصر ، فأخلت القلعة ، وأخلت فندق سميراميس ! وكانت فيه القيادة العليا البريطانية للجيش البريطاني في مصر ، وأخلت كذا ، وستجلو عن كذا ، ولكنها تأبى في المفاوضات إلا أن تبقى في مصر لتشارك مصر في الدفاع عن أرض مصر العزيزة — على بريطانيا بطبيعة الحال !

« أفتظن هذه الفئة أن الله قد سلب الشعب المصري فطرته السليمة ، حتى تخدعه كل هذه الترهات الباطلة التي يرسلها كهنة السياسة من كهوف المفاوضات على واديه المحرّم ؟ لئن ظنوا فقد خابت ظنونهم وباءوا بأخيب الرأي وأبعده عن مواقع الصواب . إن الذي بيننا وبين بريطانيا قد بان وتكشّف لكل ذي بصر . نعم لقد مضى على مصر دهر وهي مخدوعة بالمفاوضة ، ومخدوعة بقدرة السياسة على نيل الحقوق المهضومة ، ولكن لم يبق في مصر بعد اليوم شابٌّ في قلبه ذرة من إيمان بالحرية ، وفي عقله ذرة من حسن التقدير وصدق التفكير ، إلا وهو يعلم أصدق العلم أن المفاوضة معناها كذب القويّ على الضعيف ، وذلة الضعيف بين يدي القويّ . ونحن ننظر صابرين إلى هذا العبث الدائر بين رجال قد أحدّوا أنيابهم ، وأعدّوا مخالبهم ، ورجال قد عرّضوا مقاتل أمّتهم لهذا الضاري المفترس ليقضم منها حيث شاء كما شاء ، ثم يقول للفريسة : لقد أعددت لك الأطباء والممرضين ليضمدوا جراحك ويحقنوا دمك ، ويدفعوا عنك عادية الرّدى ! وكذلك تكون شفقة الأسود الرحيمة !

« إن القضية المصرية أبسط قضيّة على وجه الأرض . غاصب قد أقرّت الدول جميعاً منذ سنة ١٨٨٢ أنه غاصب ممتد ، ومغصوب لا يزال يصرخ منذ ذلك التاريخ ، ويقول لأهل الدنيا : أنقذوني . فما معنى الدخول في المفاوضات بيننا وبين بريطانيا ؟ إن العالم كله مطالب بإخراج بريطانيا من مصر ، ونحن لا نحب أن نفاوض بريطانيا ولا ينبغي لنا أن نفعل ، بل الذي ينبغي هو أن نفاوض الدول كلها إلا بريطانيا في شأن إخراج هذا الغاصب وإجلائه عن برّنا وجوّنا وبحارنا ، وفي صدّه عن عُدوانه على أعراضنا وعلى طعامنا وعلى أرزاقنا وعلى أخلاقنا وآدابنا وثقافتنا ...

« إن بريطانيا دولة قوية ما في ذلك شك ، ولكننا أقوى منها لأننا أصحاب حق . فليعلم هؤلاء المفاوضون أن مصر لن تقبل الدنيّة في مستقبلها ومستقبل أجيالها ، وليعلم هؤلاء المفاوضون أنهم لا يملكون التصرف في رقاب أهل مصر الحاضرين ، ولا في رقاب الأجيال الآتية ، وأنهم وإن كانوا مصريين كراما ، إلا أن مصر خالدة على وجه الدهر ، وهي أكرم منهم على أبنائها ورجالها الآتين . ونحن الشباب الناشئ نعرف أننا لن ننال لأنفسنا ولبلادنا حقها وحريتها إلا بالحزم والعزم وترك التهاون ، والإقلاع عن هذه الخبائث التي يسمونها المفاوضات ، ونسميها نحن المساومات . ونحن الشباب الناشئ نعرف أن الحياة لا معنى لها إذا خلت من الشرف والكرامة ، وأن الشرف والكرامة عندئذ هي الموت . فلنمت كراماً صادقين ، فذلك خير من أن نعيش أذلاء مستعبدين . ولتعلم هذه الفئة أنها تسير بمفاوضاتها في واد ، وأن الشباب يسير في واد غيره ، فليحذروا مغبة ما يفعلون ، وخير لبريطانيا أن تفهم هذا ولا تتجاهله ، فربما جاء يوم لا ينفعها فيه هذا التجاهل ، وكان خليقاً أن ينفعها الفهم وحسن الإدراك » .

هذا حديث الشباب أيها الشيوخ ، فاحذروا غداً ، فإن القوة التي تتجمع في الصدور قد أوشكت تنقض السدود التي رفعتها بريطانيا وشيدتها وجعلتكم عليها قُوّاماً وحُرّاساً . أيها الشيوخ شاركوا الشباب قبل أن يأتي يوم لا يُغني عنكم عقلكم ولا استبصاركم ولا تلبُّسكم بأثواب السياسة ومُسُوح الحكمة وعمائم الوقار . وذلك يوم قد دنا أوانه .

محمود محمد شاكر

منـــــاظرة هادئة ...

للأســـتاذ علي الطنطاوي

نحن معشر الرجعيين . . لا نرى قتال المرأة ولا نزالها ، ونجد ذلك قادحاً بالرجولة ، ونعد ذنب المرأة مغفوراً وجنايتها جُباراً ، ولكن آراء الرجعيين الجامدين من أمثالي ... صارت أثراً عتيقاً من آثار القرن الماضي لا تصلح إلا لدار الآثار ... وقد تغيرت الدنيا وأهلها ، وأصبح من أشد ما تأباه المرأة (أو السيدة إذا شئت الأدب في الخطاب) وتنكره وتراه هواناً لها ونزولا بها عن منزلتها أن تترفق بها لأنها امرأة، وغدت تريد أن تكافح الرجل وتنازله ، لا ترى نفسها أصغر من أن تغلبه ، ولا تجده أكبر من أن ينهزم أمامها . فعلى هذا ، وإكراماً للسيدة الجديدة ، ومجاراة لها في مذهبها ، ووفاء بحق هذه الأمانة ، أمانة (القلم) الذي منّ الله به عليّ وجعلني من أهله ، لأضرب به في كل ميدان إصلاح ، وأقرع به كل معالم الفساد ، لا تمنعني من ذلك رهبة عدوّ ، ولا رغبة في مودة صديق ... لهذا كله أعرض اليوم عرضاً إلى هـذه (النهضة النسائية) التي أصبح الكلام فيها واجباً وجوب عين ، فعفوَ كنّ — يا سيداتي — فأنتن أردتن هذا ، وإنه لا يزعجكن — فيما أظن — الكلام في هذه النهضة ، لأنها ليست من الضعف (في رأيكن) ومن الوهن بحيث تنهدم من ضربة ، وتطير مِنْ نفخة ، ثم إني كتبت مجيباً لا مبتدئاً ، ومنتصفاً لا معتدياً ...

ولا بدّ لي قبلُ من ذكر مقالتي (دفاع عن الفضيلة)[1] ، لأن هذا الفصل كالتعليق عليها ، ولولا الحياء وخوفي من أن أوصف بالغرور ، وبأني ممن يحرص على (صيد) الفرص ، لينوه باسم نفسه ويزكيها ، لقلت : إنه قلما تصيب مقالة من النجاح الصحفي ما أصابت هذه المقالة (في بلاد الشام) ، فقد نفدتْ نسخ «الرسالة» كلها في ساعات من نهار ، حتى صارت النسخة تطلب بأضعاف ثمنها فلا توجد ، وقرأ كل نسخة — فيما أُقدِّر — أكثر من خمسة ، ومن القراء من أخبرني أنه كان يعقد لها المجالس ليتلوها فيها كما تتلى المحاضرات ، وسُرَّ بالمقالة جمهور من الناس ودعا لي من أجلها وأثنى عليّ وهنأني ، وغضب منها جمهور من الناس ودعا عليّ وشتمني ولعنني ، ورأى فيها إخواننا الرجعيون ... الخيّرون أنصار الفضيلة ترجمة آرائهم ولسان أفكارهم ، ورأى فيها المجددون تجديد الباطل ، المجردون أنفسهم وأهليهم من ثياب الستر ، المبددون تراث الأجداد الماجد الثمين ، سدًّا في طريقهم إلى غايتهم التي يدعون إليها ، وبلاء صبّه الله عليهم ، وخزياً لهم وغيظاً لقلوبهم ، فقالوا : رجعي ؛ وقالوا : مجنون ؛ وقالوا : مُشَيَّخ محروم ينفس بهذا عن نفسه ؛ وقالوا : فاجر يتستر بالدفاع عن الفضيلة ، وما باليت كل ما قالوا ... لأني ما كتبت هذا المقال ، وما قبله ، ولا ألححت هذا الإلحاح على محاربة تلك المفاسد ، ابتغاء رضا الناس ، فأنا أعلم أن من تغضبه هذه الكتابات أطول يداً ، وأشدّ سلطاناً ، وأحدّ لساناً ، وأقدر (ولا يقدر إلا الله) على نفعي وضري ؛ ولكني كتبتها ، وكتب مثلها الأستاذ سيد قطب ، غضباً لله ولدينه ولمحارمه ، وتنبيهاً لهذه الأمة الغافلة ، أن يفتك بها ذلك الداء ، وتحرقها تلك النار ، ووطنت نفسي على حمل ما (قد) تأتيني به من الأذى ، لا حمل الضعيف العاجز ، بل المحارب المقاتل الذي لا تصيبه الضربة حتى يردها بعون الله عشراً . على أني إذا لمت الحكومات ورجالها ، فلا أبرئ العلماء ولا الأدباء ، فهم أولى باللوم ، وأحمل للتبعة ، إذ يسكتون عن إنكار المنكر ، ولا يسخرون له ألسنتهم وأقلامهم ، ولو أنهم أدّوا زكاة بيانهم دفاعاً عن الفضائل والأعراض ، وأثاروها داحسيّة بسوسيّة على الإباحية والفجور ، لما حقت هذه اللعنة علينا حتى صار يقود ناشئتنا في دورنا وأسواقنا نفر من الفجار عباد إبليس ، سموا أنفسهم كتاباً وصحفيين ، وصارت لهم كتب تقرأ ومجلات .. وما كتبهم ولا مجلاتهم إلا الترجمة الفنية لحديث المراقص والمواخير ، وبيوت الخنا والزنا ، وما يكون فيها من مشاهد وصور ، تحملها كل يد إلى كل دار ، فيقرؤها الشاب في المدرسة ، والفتاة في الخدر ، فتكون هادياً لهم إلى تلك البيوت وإماماً !

ولكن المسؤول قبل الحكومات وأرباب البيان ، والمجرم الأول ، ومنبع الشر ورأس البلاء ، إنما هو الأب ، الأب الذي يشتري لبنته لباس الرشدات ، وتُبّان السباحة[1] ، ويقطع لها

(١) الرسالة ، العدد ٦٨٧

(١) التبان : هو المايوه بذاته .

(تذكرة السفر) إلى بلاج الأسكندرية ، وفندق بلودان ، ومحاقل لبنان ، ويرضى لها أن تتكشف وتتعرى ، وتحتك بالشبان في الترام ، وتشرب القهوة عند البياع في سوق الحرير ، ويرسلها إلى مدارس يعلم فيها أدب بشار وأبي نواس شباب في أعصابهم مثل النار التي في أعصابها ، ويبعثها في رحلاتهم التي تمتد أياماً وليالي ، تنزل معهم في الفنادق ، وتركب معهم في السيارات ، وتؤم معهم المتنزهات ، وتسمع (وكيف لا تسمع ؟) الفاحش من نكاتهم ، والبذيء من أغانيهم ، وما أغانيهم إلا غزل في مثلها وتشوق إليها ، وهي في السن التي تصرخ فيها غريزتها ، وتغلي دماؤها ، ويتفتح للحب قلبها !

ولا يدري هذا الأب المغفل القرنان أن ليست عاقبة هذا إلا فضيحة تقصم الظهر أو مرضاً يحمل إلى القبر ، ثم إنها لظى ، نزاعة للشوى ، تدعو من أدبر وتولى !

أقول : إن هذه المقالة شغلت الناس ، واختلفت فيها آراؤهم ، وكان من أعجب ما سمعت من التعليق عليها ، أني كنت في الترام ، وكان الترام في تلك الساعة خالياً ، فسمعت حديثاً بين امرأتين في غرفة النساء ، لا أراهما ولا تريانني ، موضوعه التعليق على هذه المقالة ، ولست أروي من هذا الحديث إلا كلمتين اثنتين تدلان عليه ، قالت الأولى :

— يه ! ما تردّي عليه ؟ ينزل عليه الدم ان شا الله ، وعلى هالمشايخ كلهم !

قالت الثانية : وانت ليش مهتمة فيه ، مين رادد عليه ؟ يبعت له الحتّى ، يعني بدّو ترجع للورا ، ونضيّع النهضة النسائية ونرجع جاهلات متحجبات ، يتحكم فينا الرجال ؟ فشر ! إننا سنكسر راسه !

وليصدقني القراء إذا قلت لهم إن هذا كلامهم بالحرف الواحد ! وأنا لا أحب أن أرد الشتائم ولا أحسن مثلها مع الأسف الشديد ، إنما أحب أن أبحث في أصل الموضوع ، أما رأسي فقد عجزت عن كسره أقلام كتاب فحول ، حاولته من قبل ، وألسنة خطباء مقاول ، وعصيّ حكام جبابرة ، فلن تكسره أقلام طرية ، في أيد ذات سوار ، رخصة البنان ، محمرة الأظافر . لا يا سيداتي ، إن الله قد صنعه من (مواد غير قابلة للكسر) ، فدعن رأسي وتعالين نتناظر (مناظرة هادئة) في هذه النهضة النسائية ، فذلك أجدى عليكن من كسر رأس لا تستفدن من كسره شيئاً ... لأن رؤوس (الرجعيين) لا تزال كثيرة جداً !

ما هي هذه النهضة النسائية ؟ بما ذا تختلف نساء اليوم عن نساء الأمس ؟ أنا ألخص الاختلاف في كلمات :

كانت نساؤنا تقيات جاهلات متحجبات مقصورات في البيوت ، فرقّ دينهن وتعلمن وسفرن وخالطن الرجال ، فلننظر في كل خصلة من هذه الخصال ، أكانت خيراً أم كانت شراً :

أما الدين (على إطلاقه) وخوف الله في السر والعلن ، وما يكون معه من الاطمئنان والرضا ، والإحسان إلى الناس ، والبعد عن الفواحش ، وترك الكذب والغش والحسد والمكر ، وهذه خلائق يوحي بها كل دين من الأديان الصحيحة والفاسدة ، فلا يشك عاقل في أنه خير ، وأن تركه شرّ ، وأن هذه النهضة بإبعادها النساء عن شرعة الدين ، قد أضرّت ولم تنفع ، وكان ضررها مضاعفاً مكرراً ، لأنه إن جاز أن يمنع الرجل من الفاحشة خلقه وإرادته ، فقد ثبت أن المرأة لا يمنعها منها إلا دينها !

وأما العلم ، فهو خير للمرأة بشرط أن تتعلم ما يصلحها ويصلح لها ، وألا يوجب تعلمها اختلاطها بالرجال ، لأننا إن قدرنا العلم قدره ، وعرفنا له فضله ، فلا نستطيع أن نفرط من أجله بالشرف ولا نضيع العرض ، وهما أكبر قدراً وأكثر فضلا ، وليس معنى هذا أن كل اختلاط يؤدي حتماً إلى إضاعة العرض ، لا ، ولكن الغرائز موجودة ، والشهوات مستقرة في النفس ، إن منعها سدّ فقد تطغى فتحطم السدّ أو تعلو عليه ، ومن حام حول الحمى يوشك أن يرتع فيه ، والعبرة بالشائع الغالب ، لا الأقل النادر ، وعلى ذلك نزلت الشرائع ووضعت القوانين ، ولو كان احتمال سقوط المرأة في هذا الاختلاط واحداً في الألف لوجب منعه وتحريمه ، لأن أمة في كل ألف من نسائها واحدة ساقطة لأمة فاجرة ليست بذات خلق قويم ، ولا تستحق أن تعيش ....

ونحن لا نكره أن نرى في نسائنا أمثال باحثة البادية ، ووردة اليازجي ، ومي ، وماري عجمي ، ووداد سكاكيني ، ولكن أين السبيل إلى أن نوجد أمثالهن ؟ وهل توصل إلى ذلك مدارسنا ؟ إننا نبصر فتيات يتجاوز عددهن الآلاف المؤلفة ، يقطعن الطرقات كل يوم إلى المدارس ، غدوًّا إليها ورواحاً منها وهن بأبهى زينة وأبهج منظر ، يقرأن كل ما يقرؤه الشبان من هندسة وجبر

ومثلثات وكيمياء وفيزياء وأدب غـزل ، ويتعلمن الرسم والرياضة والغناء ، ويدخلن مع الشبان في الامتحانات العامة ، ويحملن مثلهم البكالوريات والدبلومات ، ويجمعهن مجلس بعد هذا كله بالعاميات الجاهليات ، فلا تجدهن أصح منهن فكراً ، ولا أبعد نظراً ، ولا ترى لهذا الحشد من المعلومات التي جمع في رؤوسهن من أثر في المحاكمة ولا في النظر إلى الأشياء ، فكأن هذه المعلومات الأغاني التي تصب في اسطوانات الحاكي (الفونوغراف) إن أدرتها سمعت لهجة فصيحة ، وكلاماً بيناً ، ونغماً حلواً ، فتقول إنها تنطق ، فإذا سألتها وكلمتها رأيتها جماداً أخرس ، ليس فيها إلا ما استودعته من الكلام الملحّن ... !

وهذا حق ، ما أردت بسرده الانتقاص ، ولكن بيان الواقع

ثم إن تزوجن لم يعتنين إلا بإهمال الولد ، وتركه للخادمات والمراضع ، والانصراف عن الدار وأعمالها ، والترفع عن الزوج ، ثم إنه لا يعجب إحداهن إلا أن تلقى في زوجها حماراً (ولا مؤاخذة) تركبه إلى غايتها ، لا رجلا تحبه وتطيعه ويحبها ويرفق بها

وإن هي اشتغلت معلمة أو محامية أو طبيبة ، لم تكن إلا (دون الوسط) في المعلمين والمحامين والأطباء ، فما هذا العلم ؟ ولماذا لا تتعلم ما ينفعها امرأةً وزوجةً وأماً وربةَ بيت ؟ ولماذا لا تتعلم مع ذلك التحرر من عبادة (الموضات) والأزياء ، ومن حب تقليد النساء الغربيات حتى فيما هو ضرر محض ، وأن يجعل لها العلم استقلالا في فكرها ، تتبع كل ما تجده صالحاً ولو كان مخالفاً للموضة ، مبايناً لما عليه أهلها ؟

وأما الحجاب ، وأعني به ستر الأعضاء التي تثير غرائز الشر في نفوس الرجال ، حتى تبقى الفتاة كالجوهرة في صدفتها ، لا يصل إليها سارق ولا غاصب ، فأنا أفهم سبب ثورة الفساق من الرجال عليه . إنهم يريدون أن يستمتعوا بالجمال المحرّم عليهم ، ولكني لا أفهم أبداً لماذا يقلدهم النساء في هذه الثورة ، وما وضع الحجاب إلا لصيانتهن وإكرامهن ؟ وماذا يضر السيدة الفاضلة المتعلمة إذا لبست اللباس المحتشم الساتر ، وهي ترى الرجل الذي تحاول التشبه به لا يكشف إلا وجهه وكفيه ، مع أنها هي التي ينبغي ألا يظهر منها إلا وجهها (عند أمن الفتنة) وكفاها ؟ أفانعكست الحال ، وانقلبت الأمور ، حتى احتجب الرجال وتكشف النساء؟ وما الذي ربحناه من السفور؟ ليجب من كان عنده جواب مقنع ،

أما أنا فأدعي أننا لم نربح منه إلا الشرور والفجور ، والدلائل حاضرات :

أما الاختلاط ، واشتغال المرأة بأعمال الرجل ، فأنا أعجب من مطالبة المرأة به ، ولا أفهم من منا يريد لها الخير ، ومن الصديق لها ومن العدو !

نحن نريد لها أن تكون سيدة حقاً مخدومة لا خادمة ، تأتيها حاجتها من غير أن تسعى إليها ، وهم يريدون أن تسعى وتزاحم الرجال حتى تصل إلى خبزها ، ولو اشتغلت بأخسّ الصناعات وأحطّ المهن ، ويدعون مع ذلك أنهم أنصار المساواة

أين المساواة إذا حملت على ظهرها مثل حمل الرجل وهي تحمل في بطنها ولده ، وأخذت مثل وظيفته وهو يغذي نفسه وهي تغذي نفسها وتغذي من ثديها ابنه ؟

ثم إنكن تقلدن أوربة ، مع أن المرأة تشتغل في أوربة عن عوز وحاجة ، وكريمات السيدات لا يشتغلن شيئاً ، إنما تعمل البائسات الفقيرات ويتمنين زوجاً يخلصهن من جهد العمل ، وإن عقلاء أوربة يصيحون شاكين من مزاحمة المرأة الرجل . فقد عطلت بيتها ، وشغلت الرجل بـ (غير العمل ...) فقللت إنتاجه ، ورضيت بالأجر الخسيس ، فنزلت الأجـور ، فاضطر العامل أن يبعث بامرأته إلى العمل ، فجاءت قضية الدور التي زعم المناطقة أنها من المستحيل !

أفنبدأ نحن من حيث أراد الغرب أن ينتهي ؟ أنلحق ما يريدون هم الفرار منه ؟ !

وهذه هي الصناعات ، فأيها تصلح له المرأة العادية وتعدل فيه الرجل ؟ إعرضها كلها من تكسير الحطب وتنظيف المجاري وكنس الطرق إلى المحاماة والقضاء والنيابة والوزارة ، وأخبرني عما تختزن منها ...

نعم ، إن الدهر يجود أحياناً بنساء نابغات يصلحن لبعض أعمال الرجال ، ولكن الكلام على سواد الرجال والنساء لا على النادر ، فكم هي نسبة الصالحين لكل من هذه الأعمال من الجنسين ؟ وإذا صلح لها النساء فهل يصلح الرجال (بالمقابلة) للطبخ وإدارة المنزل وتربية الطفل ؟ إن هذا ينتهي بنا إلى إعلان (مساواة الجنسين) ، وأنه لم يبق مجال للتفريق بين رجل وامرأة ؛ وإذن يجب على الحكومة أن تسن قانوناً يجعل الحَبَل على كل

منهما سنة ، فهي تحبل مرة وهو مرة ، وهي ترضع ولداً وهو يرضع ولداً ، وأن ينص هذا القانون على أن من يستعمل (نون النسوة) يعاقب بغرامة قدرها عشرة جنيهات !

يا سيداتي ، إنكن تعودتن منا التشجيع والتصفيق والهتاف ، ولكن المسألة خرجت عن المجاملات وصارت مسألة موت لهذه الأمة أو حياة ، فأعدن التفكير في أسس هذه النهضة ، واجعلن مصلحة الأمة هي الميزان فيها !

يا سيداتي ، لقد كنا نرجو منكن أن تدفعن عنكن هؤلاء السفلة من الرجال ، وأن تصفعنهم على وجوههم النجسة ، كما تصفع المرأة العفيفة أحد هؤلاء الكلاب إذا حاول الاعتداء على عفافها ، وأن تقاطعن هذه المجلات الداعرة الخبيثة التي تؤذي شرفكن باسم الصحافة والفن ، وأن تثرن على هذه الأفلام السينمائية الداعرة ، وأن تخرجن معلمات حاذقات وتنادين بمنع كل شاب مهما كان شأنه ، معلماً أو مفتشاً أو ناظراً ، من تجاوز عتبة مدرسة من مدارس الأناث ، فهل تحققن هذا الرجاء ، هل تقمن هذه النهضة على أساس الدين والخلق والعلم النافع ؟ !

(دمشق) **علي الطنطاوي**

أعلام الفكاهة :

جحا الألمـــاني

أو

مرآة البـــــومة

للأســـتاذ كامل كيلاني

لا يسع الباحث — مهما أغفل من الشخصيات الجحوية في أرجاء العالم وهي كثيرة كما رأيتم — أن يغفل الحديث عن « تل » جحا الألمان الملقب : بـ « مرآة البومة » .

فنحن إذا تركنا الشرق الذي أبدع فيما أبدع من أعلام الفكاهة الشرقية : هذين الجحوين الفاتنين : الشيخ « أبا الغصن دجين بن ثابت » والأستاذ « نصر الدين » ، وانتقلنا إلى ألمانيا رأينا شخصية جحوية ثالثة تظهر في العصر الذي ظهرت فيه شخصية الأستاذ « نصر الدين » ، أعني في القرن الرابع عشر الميلادي ، وهو رجل شديد الشبه بجحا الترك ، يكاد يكون — في كثير من أحواله — نسخة مكررة له ، إن لم يكن على التحقيق .

وقد نشأ « تل » : جحا الألمان ، كما نشأ صاحبه الأستاذ نصر الدين : جحا الأتراك فلاحاً يحرث الأرض ويزرعها .

وقد ولد « تل » في مدينة « كنيت لِنجن kneit lingen » من أعمال « برنزويك Brunswick » ومات في « مِين Molln » بالقرب من « سُلِيسْفِج Sblossiuig » عام ١٣٥٠ . قالوا :

وكان كثير السياحة والتجوال على قدميه في أنحاء ألمانيا ، ولم يتجاوز « تل » منتصف العقد الثاني من عمره حين مات أبوه في مدينة « هلّى Holle » . عاش « تل » و « نصر الدين » كلاهما في عصر واحد ، كما ترون ، في بلدين متباعدين ، من قارتين متجاورتين .

وقد أطلق عليه لقب « مرآة البومة » ، وهو لقب بارع الدلالة رائع المغزى . فإن البومة — برغم إجماع الناس — مهما تباينت أجناسهم وعصورهم — على النفرة منها ، واستنكار صورتها — لا ترى في المرآة إلا وجهاً طبيعياً ليس به ما ينكر ، ولا فيه ما يعاب . وهو لون مبتدع للتعبير عن الحكمة المأثورة الخالدة : « إن المرء لا يرى عيب نفسه » .

وقد شاء بعض الباحثين أن يميز « تل » ذلكم الفلاح الذكي بقسط موفور من الغفلة ، كما حلا لآخرين أن يعزوا إليه شيئاً قليلا من الخبث . واستدل بعضهم على ضيق ذهنه وموفور غفلته ، بما يؤثر عنه من المغالاة في تطبيق ما يسمع تطبيقاً حرفياً ، والوقوف عند مدلول الألفاظ الحرفي ، غير معنيٍّ بما تنطوي عليه في أثنائها من دلالات حقيقية كانت أم مجازية .

وقد افتن المتخيلون في نسبة كثير من الطرائف إليه في هذا الباب تمثل — أكثر ما تمثل — ألواناً من آراء متخيليها وروح الدعابة الأصيلة في نفوسهم .

ولكن أيّ الشخوص الجحوية سلم من أمثال هذه الغمزات؟ على أن سواد الباحثين يذهبون — في غير مغالاة — إلى أن « مرآة البومة » كان فلاحاً ذكياً مستقيم الفطرة ، وأنه لم يلجأ إلى التشبث بحرفية ما يلقى إليه من حديث ، إلا رغبة في السخرية من غرور سكان المدن المتحضرين الذين لا يستطيعون إخفاء

ما يضمرونه من احتقار لأمثاله من الفلاحين .

ويستدلون على ذلك بقصته مع الخباز ، وإليكم خلاصتها فما يتسع الوقت لغير الخلاصات .

قدم « مرآة البومة » على خباز فى بعض المدن ، واتفق معه على أجر يومى لعمله . وأمره الخباز ذات يوم أن ينجز — فى غيبته — ما اعتاد أن ينجزه كل يوم من أرغفة الخبز .

فسأله « تل » متباهاً : « ماذا أخبز ؟ » .

فضاق صدر الخباز بغباء صاحبه ، وقال له متهكما :

« اخبز لنا بوماً وغرباناً ! » :

وما كان أشد حيرته حين عاد فرأى صاحبه يطبق ما سمعه منه تطبيقاً حرفياً ، فيخبز كل ما لديه من الدقيق بعد أن يقطّعه على صُوَر البوم والغربان وأشكالها ، ولا يكاد الخباز يعود ، ويرى ما فعله « تل » حتى يتملكه الغيظ ، فينهال عليه تعنيفاً وتقريعاً . فيقول « تل » : « ماذا يغضبك ؟ ألم تقل لى ذلك ؟ ألم تأمرنى أن أخبزه بوماً وغرباناً ؟ » .

فإذا اشتد هياج الخباز قال له « تل » : « هوِّن عليك ياصاحبى ولاتتماد فى غضبك ، وخبرنى ثمن ما أتلفت من خبز؟ » .

فيقول : « جنيهان » فينقده « تل » ما طلب . ثم يحمل السلة إلى السوق ، فلا يكاد يراها الناس حتى يتهافتوا على شراء تلك الأشكال الطريفة التى أبدع صنعها ولم يكن لهم عهد بمثلها فيبيعها بخمسة أمثال ما دفعه للخباز . ويَنْمى إلى الخباز ما ظفر به صاحبه من نجاح ، فيعود إليه مستعطفاً ، ليستأنف عمله ، بعد أن ظهر له وجه الفائدة فى ابتكار « تل » ولكنه لا يعثر له على أثر . فقد غادر المدينة ، وكأنما كان « تل » يتوقع هذه النتيجة ، فذهب إلى مكان آخر ليستديم حسرة الخباز عقاباً له على ما أسلفه إليه من إساءة وغرور .

ومن بديع ما يستدل به الباحثون على حرص « تل » على التقيد بحرفية ما يقول بعد أن استدلوا — بما أسلفناه — على حرصه على التقيد بحرفية ما يسمع ، تلك الطرفة التالية :

سأله سائل : ترى بعد كم من الزمن أبلغ المدينة ؟

فقال له « تل » : سرْ فى طريقك .

فحسبه الرجل لم يسمع ، فأعاد عليه السؤال مكرراً رجاءه بصوت مرتفع . فأجابه « تل » نفس إجابته الأولى . فغضب الرجل وحسبه يهزأ به ، فصرخ فيه : أجب عن سؤالى أيها الغبى ؟

فقال له : « سر فى طريقك » فتركه الرجل ، وسار فى طريقه وهو يكيل له اللعنات ، والغضب آخذ منه كل مأخذ ، ولم يكد الرجل يبتعد عنه قليلا حتى صاح به « تل » أن يتمهل ريثما يفضى إليه بأمر يعنيه . فوقف الرجل متعجباً من غرابة أطوار هذا الرجل . وسأله : « ماذا تريد ؟ » .

فقال له فى هدوء الفيلسوف : « إذا سرت على هذا النهج بلغت المدينة بعد ساعتين » .

لم يفهم الرجل أول الأمر ما يعنيه « تل » بقوله : سرْ فى طريقك وحسبه يتعالى عن إجابته ورغب فى التخلص من رؤيته ، ولكنه أدرك أخيراً أن صاحبه على صواب ، فلم يكن فى وسعه وهو يتوخى الصحيح فى إجابته أن يعرف مدى الزمن الذى يستغرقه حتى يبلغ المدينة قبل أن يتعرف من مشيته مدى اتساع خطوته ..

ألم يقل أبو نواس : « عرفت شيئاً وغابت عنك أشياء » ثم ، ألم يقل المتعمقون : إن لكل مسألتين وجهين على الأقل ؟ فما هو صاحبنا يأخذ فى فهم ما يسمع وما يقول بالوجه الثانى للمسألة ، فلا يبعد فى حاليه عن الصواب . ورحم الله القائل :

« خذا وجه هرش أو قفاها ، فإنما
كلا جانبى هرش لهن طريق »

ومن عجيب المصادفات أن تجنى الحرفية والتشبث بالمشاكلات اللفظية على صاحبنا بعد مماته ، كما جنت عليه أثناء حياته . فإن لقبه : « مرآة البومة » مؤلف — كما ترون — من لفظين : « مرآة » و « بومة » ، وكلمة مرآة تكتب بالألمانية « سيجل siegel » وتذكرنا حروف رسمها كلمة « سجنجل » ومعناها — فيما يعلم القارىء — مرآة ، وهى ترجمتها بالعربية .

ولكن حروف سيجل ، إذا لفظها الألمانىّ قلب الياء الأولى باء ، فنطقها « شبيجل » دون أن يثبت هذا القلب فى كتابتها . وقد استخرج الفرنسيون منها لفظاً يجمع بين الكتابة والنطق ، وتمسكوا بالحرفية فى كليهما ، فأضافوا إلى بنية الكلمة

المكتوبة حرف « الباء ؟ » الذي ينطق به الألمان ولا يثبتونه . وبذلك تألفت منهما كلمة « اسبيجل espiegle » ، ومعناها : ألعبان أو هازل ثم خرجوا منها كلمة « espieglerie » ومعناها الألعبانية أو المجون . ثم أوحى لهم هذا التخريج الجائر ومشتقاته أن ينحلوه قصصاً يدور محورها على الهزل والمجون . فكان لهم ما أرادوا . ورحم الله المتنبي القائل : « ومثلك من تخيل ، ثم خالا » .

وقد ذكرتم تلك المغالطة اللفظية — أو الحرفية إن توخينا الدقة — بمغالطة أخرى منطقية ابتدعها ابن الرومي الشاعر البارع منذ أكثر من أحد عشر قرناً تخلص منها إلى نتيجة عجيبة ، لا تقل في غرابتها عما وصل إليه ذلك الساخر الفرنسي الذي جوز لفظ المرآة — وهي ترمز إلى الطيبة أو الغفلة — إلى لفظ « الألعبان » وفيه من الخبث ما فيه .

اتخذ ابن الرومي من قول الإمام العراقي أبي حنيفة بجواز شرب النبيذ وتحريم شرب الخمر ، ومن رأى الإمام الحجازي الشافعي : أن النبيذ كالخمر ، نتيجة لم تخطر على بال الامامين على بال . أراد الشافعي كما تعلمون وكما يعلم ابن الرومي المغالط الأكبر أن يقول :

« إن النبيذ كالخمر فهو مثلها حرام » ، وعكس ابن الرومي قصد الإمام فقال : مادام النبيذ حلالا في رأى أبي حنيفة ، والخمر كالنبيذ في رأى الشافعي ، فالخمر حلال كالنبيذ في رأى القياس المنطقي .

وهكذا استطاع الخبيث بما وهبه الله من أدوات الخبث وفنون المغالطة أن يتخذ من المنطق سلماً إلى الفرار من الحقيقة التي لم يخلق المنطق إلا لدعمها وبنائها ، فقال : غفر الله له :

أحل العراقي النبيذ وشربه
وقال : « الحرامان المدامة والسكر »
وقال الحجازي : « الشرابان واحد »
فحلت لنا من بين قوليهما الخمر
سآخذ من قوليهما طرفيهما
وأشربها ، لا فارق الوازرَ الوزر

الحظ السعيد

ومن بديع سخرية « تل » وتهكمه ، ما تمثله لنا قصته مع أحد السادة وكان يصحبه إلى الغابة ليصطادا ؛ فلقيا في سيرهما أرنباً صغيراً يجرى مسرعاً ، وكان صاحبه كشاعرنا ابن الرومي ، من المتطيرين . فلم يطق مواصلة سيره خشية أن يصيبه مكروه في ذلك اليوم ، وحاول « تل » أن يقنعه بسخف ما يذهب إليه المتطيرون ، فلم يفلح . فلما جاء اليوم التالي رأيا في طريقهما إلى الغابة ذئباً فقال له « تل » : الآن وجب علينا أن نرجع ، حتى لا يصيبنا مكروه ! وليس في أيدينا ما ندفع به عاديته من السلاح . فراح صاحبه يهون عليه ويقلل له من خطره ، ويحدثه أن الذئب متى اعترض الإنسان في طريقه ، فذلك بشرى بما تدخره له الأقدار من حظ سعيد ، وحاول « تل » أن يثنيه عن عزمه في متابعة السير ، ويقنعه بفساد هذه الخرافة فلم يفلح .

ثم لم يلبث « تل » أن ظهر رجحان رأيه بعد قليل : فقد أقبل الذئب على جواد صاحبه ، وهو مربوط إلى بعض أشجار الغابة ، فافترسه وأكل من لحمه ما شاء ، و « تل » وصاحبه مشغولان بالصيد . فلما عادا ورأيا الذئب منهمكا في تمزيق لحم الجواد وازدراده ، التفت « تل » إلى صاحبه ، وقال له متهكما :

« ما أصدق رأيك يا صاح : ألا ترى حسن الحظ وهو يأكل جوادك » .

* * *

بحسبنا هذا القدر على وجازته وإلا امتد بنا نفس القول فشغلتنا طرائف « مرآة البومة » عما هدفنا له من أغراض . على أنني أجتزىء في الحديث بتلك الطرفة التي تعزى إلى «تل» مرة وإلى « بات » مرة أخرى ، وإن كانت بثانيهما ألصق ، وبطبعه أليق .

فهي من أبرع ماقرأته من أخبار هذه الشخصيات الرائعة : فقد زعموا أنه بعث إلى خليلته أو حليلته ، فما يدرى ذلك أحد على وجه التحقيق ، بالكتاب الآتي :

« أرجو ، إذا لم تصل إليك هذه الرسالة ، أن تسرعي — من فورك — بالكتابة إلىّ لأعرف أنك لم تقرئيها .

كما أرجو أن تعلمى أيتها العزيزة — إن كنت لا تعلمين — أننى لا شأن لى بما يقع فى كتابى من خطأ فى بعض الأحيان . فلست أنا مصدرها ، ولا يجوز أن أحاسب عليها . إنما يؤخذ بها قلمى ، فهو من نوع غير جيد ، وكثيراً ما يتعثر فى الكتابة ، ويخونه التوفيق ، فيجرى بغير الصواب .

كامل كيلانى

رد على نقد :

مع البلاغيين ..

للأستاذ على العمارى

كتب الأستاذ كامل شاهين فى عدد « الرسالة » (٦٩٢) مقالا تحت عنوان (علوم البلاغة بين القدامى والمحدثين) يرد به علىّ وعلى الأستاذ على الطنطاوى فيما كتبناه عن علوم البلاغة فى الجامعة . وأنا أوثر أن أترك للأستاذ الطنطاوى أن يرد عما وجهه إليه الكاتب . فللأستاذ أسلوبه وقلمه البليغ ، وما أحب أن يحرم قراء « الرسالة » من بيانه فى هذا الموضوع .

والأستاذ شاهين مشكور لأنه لما رأى سكوت الأستاذ الخولى وجماعته من الذين يسمون أنفسهم (الأمناء) تبرع بالذب عنهم ، والانتصار لهم ، وما أظنهم راضين عنه فقد كان السكوت أولى من مثل هذا الرد المملوء أخطاء وتخليطاً ، وحسب القراء أن أنقل إليهم الفقرة الأولى من كلامه ليتبينوا مدى ما فيها من الأغاليط :

١ — « تقول إن الفكرة المتسلطة عليه فى هذا الفن أن يجعل لكل عبارة من عباراته منبعاً لمعان نفسية . أى نعم ياعلىّ ، أأنت قرأت تعريف البلاغة ؟ إن الذى لا يختلف فيه اثنان هو أن البلاغة مطابقة الكلام لمقتضى الحال ، ولا أزيد بيانا ولا بسطاً ولكن هذه المطابقة لا تكون إلا بإدراك المتكلم لنفسية السامع وما تحوى من ملابسات . فهذا هو فحوى كلام الأستاذ الخولى أفمارى فى هذا ؟ إذن فهات تعريفك أنت لعلم البلاغة فإنا منتظرون » .

وأنا قد قرأت تعريف البلاغة ، واطلعت على أكثر الكتب التى عرفت البلاغة ، ومما يؤسف له يا سيد كامل أن أحداً من العلماء لم يعرّف البلاغة هذا التعريف الذى ذكرته ، ويبدو لى أنك تريد أن تجدد كما يجدد الشيخ أمين الخولى ، والتجديد سهل ميسور ، ما دام قصارى المجدّد أن يسوق قضايا مخطئة ، وإليك ما أعرفه أنا وما يقوله العلماء فى تعريف البلاغة :

ذكر يحيى بن حمزة صاحب كتاب الطراز وهو من الكتب المعدودة فى البلاغة تعريفها فقال : « اعلم أن البلاغة فى وضع اللغة هى الوصول إلى الشىء والانتهاء إليه فيقال بلغت البلد أبلغه بلوغاً والاسم منه البلاغة ، وسمى الكلام بليغاً لأنه قد بلغ به جميع المحاسن كلها فى ألفاظه ومعانيه ، وهو فى مصطلح النظار من علماء البيان عبارة عن الوصول إلى المعانى البديعة بالألفاظ الحسنة ، وإن شئت قلت هى عبارة عن حسن السّبك مع جودة المعانى » فهذا عالم من علماء القرن الثامن الهجرى وهو يذكر أن هذا التعريف (فى مصطلح النظار من علماء البيان) وعرفها أبو هلال العسكرى صاحب الصناعتين فقال : « البلاغة كل ما تبلغ به المعنى قلب السامع فتمكنه فى نفسه لتمكنه فى نفسك مع صورة مقبولة ومعرض حسن » ، وللعلماء والأدباء تعاريف كثيرة للبلاغة ليس منها : مطابقة الكلام لمقتضى الحال .

ونحن إذا سألنا طالباً صغيراً عن تعريف علم المعانى يقول : « إنه علم بقواعد وأصول يعرف بها مطابقة الكلام لمقتضى الحال » . فاذا قلنا له : هل مطابقة الكلام لمقتضى الحال هى البلاغة . يقول : لا . بل لا بد من زيادة وإضافة إليها . فنقول كما قال بعض العلماء (مع فصاحته) ، وهذه عبارة مهمة جداً ومكملة للتعريف .

والطلاب الصغار يعرفون أن علوم البلاغة ثلاثة : المعانى ، والبيان ، والبديع . وأن لكل علم تعريفاً خاصاً ، ولا يصلح تعريف علم منها لأن يكون تعريفاً للبلاغة . فهل يصر الأستاذ شاهين على أن هذا التعريف للبلاغة « لا يختلف فيه اثنان » أو يسلم معنا أنه كبا حيث أراد النهوض .

على أنى كنت أنقد كلام الأستاذ الخولى فى علم البيان وقلت (فى هذا الفن) أقصده فهل يحتج بتعريف علم المعانى على كلام فى علم البيان ؟

٢ — قلت إن اللغة العربية مملوءة بالتشبيهات الحسية التي لا ترمى إلى معانٍ وراءها ، وعبت على الشيخ الخولى أن يعتبر جمل العلماء بيان حال المشبه من أغراض التشبيه (كلاماً فارغاً) فجاء الأستاذ شاهين يرد علينا هذا ، وهو لم ينصف الشيخ أمين ولم ينصفنا .

العرب يقولون : أسود كحنك الغراب ، ويقولون : كالدم القانى ، ويقول امرؤ القيس :

ترى بعر الآرام فى عرصاتها وقيعانها كأنه حب فلفل

ويقول الله سبحانه وتعالى (وجفان كالجواب وقدور راسيات) أفلا تكون هذه التشبيهات مقبولة حتى نتلمس لها معانى وراءها .

على أن الخبط وتلمس المعانى سهل ميسور ما دمنا لا نبالى الخطأ . فكل إنسان يستطيع أن يحمل النصوص ما لا تحتمل ، ولذلك مثال سقناه فى مقالنا الثالث المنشور فى « الرسالة » وهو تعليق الشيخ أمين على بيت بشار بن برد .

٣ — ونحن لا نأخذ كلام المتقدمين قضايا مسلمة دائماً ؛ كما لا نتهم أذواقهم ولكنا نقبل منها المقبول ، ونرفض ما يتبين أنه ضعيف واهٍ . وليس كلامهم الذى سقناه بالكلام الضعيف الواهى ولكنه حسن جميل يعتمد على الذوق قبل كل شىء ، فأنت حين تسمع ذكر المشبه تستشرف لما يجىء بعد وتخطر فى ذهنك أكثر التشبيهات القريبة ؛ فإذا جاء الشاعر أو الناثر بتشبيه بعيد نادر وقع من نفسك موقعاً حسناً ، وعرفت مقدار ما عانى الشاعر فى استخراج هذا التشبيه . والتشبيه فن ، وهو يكون فى الماديات البحتة كما يكون فى المعنويات ، وتلمس المعانى وراء كل تشبيه إنما هو تعنّت وحذلقة .

أين المعانى النفسية وراء قول طرفة :

كأن حدوج المالكية غدوة بقايا سفين بالنواصف من دد

أو قول امرىء القيس :

كأن ثبيراً فى عرانين وبله كبير أناس فى بجاد مزمّل

أو قول المهلهل بن ربيعة :

كأنا غدوة وبنى أبينا بجنب عنيزة رحيا مدير

أو قوله :

كأن رماحهم أشطان بئر بعيد بين جاليها جرور

الخ ... الخ .

وتكذّب على هذه التشبيهات بما شئت فأنك تستطيع أن تحيطها بكثير من المعانى ، ولكنها بعد من عندك وصنعك ، ولم يفكر فيها الشاعر ولا إليها قصد .

يختلف معى الأستاذ شاهين فى سر إعجاب جرير بن الخطفى بتشبيه عدى بن الرقاع فى بيته :

تزجى أغن كأن إبرة روقه قلم أصاب من الدواة مدادها

فهو يرى أن سر إعجابه أن هذا التشبيه حضرى وعدى بدوى جلف جاف ، وأنا أرى أن سر الإعجاب أن الشاعر استطاع أن يأتى بمشبه به موافق كل الموافقة للمشبه . ثم جاء به من مكان بعيد لا ينتظر أن يهتدى إليه .

غزال صغير له قرن صغير فى طرفه سواد أراد الشاعر أن يلتمس له شبهاً وجرير حاضر فوقع فى نفسه أنه لا يمكن الإتيان بشبيه له لدقته وبعده عن الأفهام، فلما تهدّى إليه الشاعر ووجده فى قلم لم يصب من المداد إلا قليلا ووجد جرير أن الشبه تام بين المشبه والمشبه به حسد عدياً على هذه القوة البيانية .

أما أنه حسده على أنه أتى بتشبيه حضرى فمعنى ذلك أن جريراً كان يتوقع من الشاعر أن يهتدى لهذا التشبيه نفسه أو مثله من التشبيهات الحضرية ، وما أظن جريراً خطر على باله شىء من ذلك . وهب أن شاعراً شبه شيئاً بدوياً بشىء حضرى وكان التشبيه ضعيفاً واهياً أكان يعجب ذلك جريراً . لا . وإنما إعجابه كان لما ذكرنا .

٥ — كنت أحب للأستاذ شاهين أن يخلو نقده من هذه الكلمات .

« فليسمح لى الزميلان الطنطاوى والعمارى أن ألفت نظرهما إلى مزالق ما كنت أحب لهما أن يتورطا فيها أو ينحدرا إليها » .

وقوله : « فأما إذا انحدرت إلى هذا فهلم » وقوله : « وليس هذا بالكلام يصغى إليه » إلى غير ذلك من الكلمات التى تجرح وأظن أنا كلنا له صاعاً بصاع فان زاد زدناه .

على العمارى
المدرس بمعهد القاهرة

الشرع الإسلامي وعلماء الفرنج (*)

للأســـتاذ مصطفى محمد حسين

« كتب الفرنج كثيراً عن الشرع الاسلامى وعن النبى العربى صلى الله عليه وسلم ، وفى ما كتبوه الغث والسمين ، والحالى والعاطل ، والحق والباطل . ولكن العصر الأخير أنصف الاســلام كثيراً بالقياس إلى العصور الخوالى ، كما يتبين من الأقوال التى أنقلها ولو عنى المسلمون بدعاية منظمة للاسلام لصححوا أباطيل كثيرة وبددوا أوهاماً كثيرة تتعلق بهم وبدينهم ، ولاهتدى إلى الاسلام جم غفير يؤثرون تأثيراً شديداً فى مجرى السياسة العامة » .

قال كارليل : فى الإسلام خلة أراها من أشرف الخلال وأجلها ، وهى التسوية بين الناس ، وهذا يدل على أصدق النظر وأصوب الرأى ، فنفس المؤمن راجحة بجميع دول الأرض ، والناس فى الإسلام سواء . والإسلام لا يكتفى بجعل الصدقة سنة محبوبة بل يجعلها فرضاً حتما على كل مسلم ، وقاعدة من قواعد الإسلام ، ثم يقدرها بالنسبة إلى ثروة الرجل ، فتكون جزءاً من أربعين من الثروة تعطى إلى الفقراء والمساكين والمنكوبين . جميل والله كل هذا ، وما هو إلا صوت الإنسانية ، صوت الرحمة والإخاء والمساواة يصيح من فؤاد ذلك الرجل ابن القفار والصحراء (صلى الله عليه وسلم) .

وقال الدكتور انسباتو الإيطالى فى كتاب : (الإسلام وسياسة الحلفاء) الذى نشره سنة ١٩١٩ : إن الكرم العلمى والصدقة الفكرية صفتان من صفات الإسلام شأنهما أن تجعلا الأمة العاملة بهذا الدين أهلاً لأن تبلغ من الحضارة ذروتها العليا .

لما كان الأستاذ أمين الريحانى فى السفينة الشراعية على ساحل جزيرة البحرين قاصداً ساحل الأحساء ، أثقل الهواء جفنه فنام قليلا ، ثم أيقظه صوت الملاحين ، وهم إذ ذاك يشتغلون فى قلب الشراع طوعاً للريح ويرددون : (صلى على النبى) فقال الريحانى فى كتابه (ملوك العرب) يصف أثر ذلك فى نفسه : وربك أيها القارئ ما سمعت فى أنغام الليل على المياه أطرب منها ، إلا أن يكون صوت المؤذن فى الخليج وهو يؤذن الفجر ، ليس فى صلوات الأمم كلها أدعى منه إلى الورع والخشوع ، وقل فيها ماهو أجمل وقعاً فى النفس من صلاة الملاح فى ظل الشراع .

اجتمع الأستاذ محمد لطفى جمعة مع السيد توفيق البكرى ، بعد عودته من مستشفى بيروت إلى القاهرة ، ودار بينهما حديث نشره المقطم ، ومما قاله فيه : وجاء على لسانى عرضاً ذكر برتلميه سانت هيلير فقال السيد : بعد أن تنتهى من حديثك سأذكر لك عبارة تاريخية تنسب إلى سانت هيلير . فتكلمت وأسهبت ، ولكن السيد لم ينس وعده فلما انتهيت قال لى :

قال سانت هيلر فى تاريخ النبى محمد الذى ألفه باللغة الفرنسية إنه كان يشك فى صدق النبى فى رسالته حتى قرأ فى جميع السير أنه لما نزلت آية الحفظ ووعد الله نبيه بأنه سيتولى حراسته (والله يعصمك من الناس) . بادر محمد إلى صرف حراسه ، والمرء لا يكذب على نفسه ولا يخدعها ؛ فلو كان لهذا الوحى مصدر غير الله لأبقى محمد على حرسه .

وقالت مسز سروجنى نائدو الشاعرة الهندوسية : لقد دعا الإسلام قبل اليوم بثلاثة عشر قرنا إلى المساواة والأخوة ، وقد أسس الإسلام أول جمهورية كان القانون الإلهى رائدها ، والفقير والغنى سواء فيها ، ولا شك مطلقاً أنه يأتى يوم يبتلع الإسلام فيه جميع الأديان .

وقال شبلى شميل : إن فى القرآن أحوالا اجتماعية عامة ، حتى فى أمر النساء ، فإنه كلفهن بأن يكن محجوبات عن الريب والفواحش ، وأوجب على الرجل أن يتزوج بواحدة عند عدم إمكان العدل ، وأن القرآن فتح أمام البشر أبواب العمل للدنيا والآخرة ، ولترقية الروح والجسد ، بعد أن أوصد غيره من الأديان تلك الأبواب فقصر وظيفة البشرية على الزهد والتخلى عن هذا العالم الفانى .

وقال هنرى دى شامبون مدير (ريفوبارلمنتير) الفرنسية : لولا انتصار جيش (شارل مارتل) الهمجى على تقدم العرب فى فرنسة لما وقعت فرنسة فى ظلمات القرون الوسطى ولما أصيبت بفظائعها ولا كابدت المذابح الأهلية الناشئة عن التعصب الدينى

(*) ذكرنى بهذه الكلمات مقال الأستاذ حسن أحمد الخطيب (الشريعة الاسلامية وأعلام القانون فى هذا العصر) المنشور فى عدد الرسالة ٦٨٩ .

ذبحهم فى قرارهم القديم أولئك السفاحون من أهل بيدمنت ، وألقوا بالأم وطفلها من حالق فوق الصخور ترميهم صخرة إلى صخرة ؛ لقد كان لأناتهم فى الأودية صدى رفعته إلى التلال ، ونقلته التلال إلى السماء ؛ انثر أيها المولى دماءهم الشهيدة وأشلاءهم على حقول إيطاليا كما تنثر البذور[1] حيث لا يزال يتسلط الطاغية الثلاثى[2] عسى أن ينمو من هذه مائة نحو فيكون منها جيل يعجل وقد علم سبيلك بالقضاء على هذا الكرب البابلونى[3] » .

وجنح ملتن إلى العزلة بعد هذا الحادث ، وكان يقضى أكثر الوقت فى بيته ، يقرأ له ابن أخته أو غيره من تلاميذه القدامى أو من محبيه من المتأدبين حاشيتى النهار وطرفاً من الليل ، وكان يدير فى رأسه فى تلك الأيام ما عسى أن ينهض له من الشعر . ففكر فى أن يجعل موضوعه بطولة الملك آرثر ، ذلك الموضوع الذى فكر فيه من قبل فينظم الآرثريادا كلحمة يسجل فيها فترة من تاريخ قومه ؛ ولكن أكثر اتجاهه كان إلى موضوع آخر كما يذكر ابن أخته وذلك هو « قصيدة من قصائد البطولة عنوانها الفردوس المفقود » ، واقتصر جهده على التدبر فى هذا الموضوع والصورة التى يصوغه فيها وقراءة ما يتصل به ، وكان أول الأمر يريد أن يتخذ نوعاً من المسرحيات لباساً له ؛ على أنه كما يذكر ابن أخته فيلبس لم يبدأ نظم قصيدته فعلا إلا لسنتين قبل عودة الملكية أى سنة ١٦٥٨ ...

وكانت الحكومة قد أسكنت ملتن هويت هول فى أول عهده بالوظيفة ، ولكنه لم يلبث هناك طويلا فاستأجر بيتاً على مقربة من حدائق سان جيمس وعاش فيه منذ سنة ١٦٥٢ ، وفى هذا المنزل أقام ملتن حتى سنة ١٦٦٠ حيث أجبرته عودة الملكية إلى الاختفاء حينا لينجو بنفسه من الهلاك .

وكان يزوره فى منزله أصدقاؤه ، وهم بين تلميذ له جاوز مرحلة التعلم أو معجب به من المثقفين ، وقل فى زائريه من كان من المبرزين من رجال العصر فى الأدب أو فى السياسة أو فى الدين ، وذلك أن اعتداد ملتن برأيه وتعاليه بثقافته جعلا بينه وبين أكثر الناس ممن يرون أنفسهم أنداداً له حجاباً كثيفاً ، فكان هؤلاء يرمونه بالكبرياء والصلف ويكرهون منه أن ينظر إليهم من عل نظرة ترفع وتحفظ وإعراض ، هذا إلى أن آراءه الدينية قد باعدت بينه وبين النابهين من البرسبتيرز ، وميوله السياسية قد جعلت من الملكيين أعداء له ، وعنفه فى الخصومة قد ألقى فى روع الناس أن من يتصل به لا يأمن أن يصبح من عدوه لأقل خلاف فى الرأى أو فى العقيدة .

ويجب أن نضيف إلى تلك الأسباب محبته للعزلة منذ أيامه فى هورتون وعكوفه على المطالعة والدرس ؛ فقد كان ميله إلى العزلة من الظواهر الواضحة فى حياته ؛ وقد كرهت إليه محبة العزلة لقاء الناس وغشيان مجالسهم أو سوامرهم ، وعنده من الكتب عن ذلك عوض . ففيها لنفسه ولعقله متعة حق متعة .

ونستطيع أن نتبين مقدار ما كان بينه وبين نابهى عصره من جفاء مما ذكرته أرملته عن رأيه فى هوبز الفيلسوف الكبير قالت « لم تكن له معرفة به ، وكان لا يحبه زوجى أبداً وإن كان يصرح أنه رجل ذو نواح عظيمة » . .

وكان من أحب أصدقائه إليه وأكثرهم اختلافا إلى منزله وأقربهم مجلساً منه لورنس وسيرياك سكنز ونيدهام وهارتلب وأولدنبرج وأندرومارفل ، وكان الأولان تلميذين له أما البقية فكانوا من ذوى المكانة الأدبية وعلى الأخص آخرهم ذلك الذى اختير مساعداً لملتن فى وظيفته الرسمية سنة ١٦٥٧ ، وكان مارفل متين الخلق كصاحبه لا تضعضعه النوائب ولا تحنى رأسه الفاقة ، وكان أصغر من ملتن باثنتى عشرة سنة وكان مثله متخرجاً فى كمبردج ، وقد أحب ملتن حباً شديداً وأعجب به إعجاباً ، لما فتوثقت بينهما عرى المودة وظل مارفل على ولائه له حتى فرق بينهما الموت .

ويذكر فيليبس أنه كان يزور خاله إبان السنوات الثمانية التى قضاها فيما يشبه العزلة قبل عودة الملكية عدد كبير من ذوى المكانة ثم لا يشير إلا إلى اثنين : ليدى رانالا ودكتور باجت ، وكانت ليدى رانالا على حظ من الذكاء غير قليل كما كانت ذات ثقافة وذات ميول حرة ؛ وكانت قد وكلت إلى ملتن تعليم ابن أخ لها ثم ابنها من بعده ، وقد أعجبت بالشاعر العظيم ولما كان لا يستطيع زيارتها كانت تزوره هى وتستمع فى إكبار وإجلال إلى حديثه ...

---

(١) إشارة إلى حكمة مؤداها أن دماء الشهداء هى بذور الكنيسة

(٢) إشارة إلى البابا الذى يلبس عمامة بها ثلاثة تيجان .

(٣) شبه ملتن روما وكنيستها ببابل وهى عند المسيحيين من أتعس المدن وأشقاها وكانوا يسمونها بابلون .

وحدثت عنه دبورا إحدى بناته فقالت : « إنه كان جليساً مؤنساً . وكان حياة حلقة من الصحاب تدور به ، وذلك لأنه كان يتدفق بشتى الأحاديث والموضوعات وكان عذب الروح مرحاً ذا مودة فى غير تكلف لشىء من هذا » .

والحق أن ملتن كان لين الجانب طلق المحيا محبب العشرة صادق المودة لمن يجلس منه مجلس التلميذ من أستاذه وهؤلاء هم خاصته الذين ذكرنا ، وكانت لهجته فى مخاطبتهم لهجة المعلم ، وكان يتلو عليهم ما يظن أنهم فى حاجة إلى معرفته ولا يحب أن يجادلهم أو يبادلهم حجة بحجة فليس هذا شأن الأستاذ مع تلاميذه ، وما منهم إلا من يكبره ويخفض له جناحه ويغض عنده من صوته ، وإن كثيراً منهم ليتنافسون من يكتب له إذا أملى ومن يقرأ له إذا طلب بحثاً من البحوث ، ومن يقوده ويأخذ بيده ليمشى ساعة فى الحدائق القريبة ، وكلهم بذلك مغتبط أيما اغتباط .

وكان يزوره فى منزله كثير من كبراء الأجانب ممن يهبطون انجلترة ، وكانوا يسمعونه عبارات التجلة والاعجاب ، ويذكر أوبرى أحد مؤرخى حياته فى ذلك قوله « إن الحافز الوحيد الذى كان يحفز فريقاً من الأجانب لزيارة انجلترة كان فى الأكثر رؤية أليفر كرمول حامى الجمهورية ومستر جون ملتن ، وكانوا يرغبون أن يروا بيت الشاعر والحجرة التى ولد فيها فقد كان الاعجاب به خارج انجلترة أشد منه فى موطنه كثيراً » .

وكان يعينه فى كثير من شؤونه إلى جانب أصدقائه ابنا أخته . أما بناته الثلاثة فكن صغيرات فقد تركتهن أمهن حين ماتت منذ ثلاث سنوات أى سنة ١٦٥٢ وكبراهن فى السادسة من عمرها ووسطاهن فى الرابعة وصغراهن بنت شهر واحد .

وفى سنة ١٦٥٦ تزوج ملتن بزوجة ثانية ، وقد جاءت كما أحب رجاحة عقل وصدق عاطفة ، واستنشى الشاعر نسيم المودة والرحمة بين يديها ، وأحس كأنما يحيى حياة جديدة على الرغم مما يحيط به من ظلمة ، وكان كمن ألقت به الصحراء المجدبة إلى واحة ظليلة ؛ ولكنه لم يلبث فى واحته هذه أو جنته إلا خمسة عشر شهراً ثم نكبته النكبة فى زوجته فكأنما كان يكيد له الدهر حين أذاقه النعيم فما كان ذلك منه إلا ليعظم فى نفسه هول الجحيم وماتت الزوجة كسابقتها فى سرير الوضع وتركت له كذلك أنثى لم تعش بعد أمها إلا نحو شهر ؛ وفزع الشاعر إلى قيثارته يخفف عن نفسه ما يعتلج فيها من حزن ، وكأنه من فرط ما فى جوفه من حريق يحس كأن الجحيم نفسها تتنفس على كبده . قال الشاعر المحزون : « رأيت فيما يرى النائم أن قديستى التى تزوجت بها أخير قد أحضرت إلى من القبر كما أحضرت أليستس[(١)] التى أرجعها الإبن الأكبر لجوف إلى زوجها الذى امتلأ فرحاً وقد نجاها ابن جوف من الموت بقوة ولو أنها ظلت شاحبة هزيلة ، ولكن امرأتى جاءت كما لو أنها اغتسلت مما يتركه الوضع فتخلصت بذلك من التطهر وفق الوضع القديم ؛ ونظرت فاذا بى كأنى أملأ منها عينى فى الجنة بغير عائق ما ، وقد خطرت فى ثياب بيضاء نقية نقاء عقلها ، ولكن وجهها كان مقنعاً ، بيد أنى أبصرتها بعينى خيالى فاذا الحب والجمال وطيبة القلب تضىء فى هيكلها بصورة لن يكون أحسن منها وأبهج فى وجه من الوجوه ... ولكنها يا ويلتا ما كادت تميل إلى لتعانقنى حتى صحوت فلم أجدها ووجدت النهار يحيطنى ثانية بليلى المظلم » .

هذا هو الشاعر يصف فى هذه المقطوعة الجميلة مبلغ حزنه ولكن به كبرياء أن يصرعه الخطب ، وإن صدق إخلاصه للشعر واعتقاده أنه خلق لعظيمة فيه ليرتفع به عن الحزن ؛ وكان يجد عزاءه فيما يقرأ له أصدقاؤه وفيما تنطوى عليه نفسه وتختزنه ذاكرته ؛ وإنه فى هذا ليتداوى بالتى كانت هى الداء ، فهذه الكتب هى التى أفقدته ناظريه؛ على أنه اليوم يقرؤها بعينى غيره .

وكان يقول لمن حوله إن خياله يضىء ويلتمع فى الظلمة أكثر مما يضىء فى النور ، وأن النور لم يذهب عنه ولكنه تسرب إلى داخله ليرهف مخيلته وعقله ، وتلك تملات كان لا بد له منها لكى يقوى على ما كان يحيط به ، وإنه لينهض على ما هو فيه لقصيدة تضعه فى مستوى هوميروس ودانتى ، وما نعرف شاعراً كانت حاله أكثر سوءاً من حال هذا الشاعر حين يضطلع بعبء كهذا العبء وفى هذا أبلغ شاهد على سمو روحه وقوة نفسه .

(يتبع) **الخفيف**

(١) زوجة أودميتس ملك فيرا فى تساليا ، وقد وعد أن ينقذ من الموت إذا مات أحد بدله فماتت بدله أليستس ، ولكن هرقل ابن جوف وكان صديقاً لزوجها أرجعها حية إلى ذلك الزوج ، وقد قص يوربيد هذه القصة فى مسرحية أليستس .

مراكش وأسبانيا

للأستاذ عبد المجيد بن جلون

هناك حقيقة تاريخية لا يمكن إغفالها عند التحدث عن العلاقة بين المراكشيين والأسبانيين ، وهذه الحقيقة التاريخية هي أن الدولتين ظلتا في خصومة مستمرة منذ عهد بعيد وطيلة أجيال متعاقبة ، وقد دخلت تلك الخصومة في طورها الفعال بعد أن قويت دولة النصرانية في الأندلس واستطاعت أن تستولى قواتها على شبه الجزيرة كلها

شبت منذ ذلك الحين معركة قاسية طويلة الأمد بين المراكشيين والأسبانيين، وكانت على شكل غارات بحرية متوالية ، فكان الأسبانيون ينزلون إلى سواحل مراكش غازين مغامرين ، وكان المراكشيون ينزلون إلى السواحل الأسبانية غازين مغامرين مدمرين ، وظل الأمر على ذلك أزمنة طويلة حتى بعد قيام الأمبراطورية الأسبانية ، إلى أن ضعف أمر الدولة المراكشية في القرن التاسع عشر ، فاقتحم حدودها الأسبان سنة ١٨٦٠ ، وشبت دون مدينة تطوان معركة طاحنة بين الفريقين تبادلا خلالها النصر والهزيمة مرات كثيرة ، إلى أن دارت الدائرة على الجيش المراكشي وسقطت المدينة لتدوسها سنابك خيل العدو ، فذاقت مدة من الزمن حياة المهانة على يد أعدائها القدماء . ولولا الظروف السياسية والتنافس الدولى لذاقت مراكش كلها ما ذاقته المدينة التعسة ، ولكن كان على الجيش الأسبانى أن يغادرها تحت تأثير الظروف الدولية ؛ وهكذا خبا أمل الأسبانيين وضاعت الفرصة الثمينة التي أشرقت ثم غار نورها .

ولكن فكرة غزو مراكش زادت قوة ، فظلوا يتحينون الفرص للانقضاض عليها . وكانت الجيوش الفرنسية في الجزائر على حدود مراكش الشرقية تشارك الأسبانيين هذا الأمل الخلاب ، وباتت مراكش بين هاتين القوتين المضطرمتين ، ولكن تطور الحوادث بعد ذلك دفع بالدولتين إلى الاتفاق .

كان ذلك في مفتتح هذا القرن ، إذ اتفق الفرنسيون والأسبانيون على اقتسام مراكش بينهما ، على أن تستولى أسبانيا على نصفها الشمالي إلى ما بعد مدينة فاس ، ويستولى الفرنسيون على الباق . ولكن الوضعية الدولية تغيرت واستطاعت فرنسا أن تعقد الاتفاق الودى المشهور مع انجلترا سنة ١٩٠٤ ، وبذلك قوى مركزها الدولى ، وتزعمت منافسة ألمانيا التي كانت تعمل هي أيضاً للاستيلاء على مراكش . وشبت الخصومة قوية خلال سبع سنوات بينهما ، وتطورت تطورات خطيرة كادت تعجل بقيام الحرب العظمى ، يوم دخل الطراد « بنثر » مياه أجادير. وكاد يطلق القذيفة الأولى في أول حرب عالمية . كانت أسبانيا مختفية طول تلك المدة ، بينما كانت فرنسا في مقدمة العاصفة ، وقد غامرت بمستقبلها في سبيل مراكش ، ولذلك ألفت من تلقاء نفسها الحدود القديمة التي انفقت عليها مع أسبانيا ، واكتفت بإعطائها ، بعد أن انتهت القضية المراكشية إلى ما انتهت إليه ، منطقة صغيرة في الشمال ، ولم تسمح لها بالاستيلاء على مدينة فاس .

وهكذا انتهت تلك القصة الطويلة سنة ١٩١٢ يوم فرضت معاهدة الحماية على مراكش ، ولكن تلك النهاية كانت إيذاناً ببداية معركة أخرى ، هي معركة بين شعب يدافع عن نفسه وشعب آخر يحاول اغتياله والقضاء عليه . وما أن انتهت الحرب العظمى حتى هبت ثورة بطل مراكش الكبير الأمير عبد الكريم الخطابي في وجه الجيش الأسباني ، وبدأت الأحلام الأسبانية تترنح تحت الضربات القاصمة التي وجهها إليها الأمير البطل ، ذلك الرجل الذي أثخن الجسم الأسباني جراحاً ، وقدم إلى أسبانيا جزاء على مغامرتها مرارة الثكل واليتم والآلام ، إلى درجة أنهم فكروا جدياً في الإقلاع عن السير في هذه الطريق المحفوفة بالأخطار . ولكن تدخل فرنسا في النهاية واستفحال القوات المهاجمة أرغما البطولة على الاستسلام ، فلم يكن للجيش المراكشي الباسل مناص من إلقاء السلاح أمام الجيوش الجرارة التي جردتها عليه الدولتان القويتان

انتهت المعركة وبدأت أسبانيا تحاول أن تشق الطريق إلى أهدافها في القضاء على مراكش مرة أخرى ، ولكن منعها من ذلك قيام الحركة الوطنية وانتشارها بشكل واسع في البوادي والمدن ، وقد كان قيام هذه الحركة بمثابة تحصين لروح الأمة وكيانها ؛ كما منعها من ذلك أنها لم تحقق من أحلامها العسكرية في مراكش إلا اليسير ، فهي ما تزال بعيدة كل البعد عن ذلك ما دامت لم تسيطر إلا على هذه الرقعة الصغيرة من الإقليم المراكشي

ولذلك فإن تسرعها فى محق هذه البلاد لا يمكن أن يكون عملياً ما دامت لم تسيطر بعد عليها كلها .

وإذن فلتؤخر الكارثة إلى أن تتمكن أسبانيا من الاستيلاء على مراكش كلها . وهكذا اتجهت السياسة الأسبانية إلى نوع من المخاتلة ، محاولة إخفاء نياتها الحقيقية لكي تستعين فى الوقت المناسب بسمعتها ضد الفرنسيين . وكانت فى نفس الوقت تخاف أن يهب فى وجهها عبد الكريم آخر إذا هى اتجهت فى سياستها نحو الشدة . كانت تقول للوطنيين : لا تطالبوا أسبانيا بشيء ، فإن مسألة مراكش فى يد فرنسا ، وفرنسا هى التى أعطت أسبانيا هذه المنطقة . ثم إن أسبانيا لا تستطيع أن تتنازل عن نفوذها فى هذا الجزء الصغير من مراكش لكي تستولى عليها فرنسا . ولذلك فإنه يجب على الوطنيين أن يوجهوا جهودهم نحو تحطيم الاستعمار الفرنسى ، وبعد ذلك تكون أسبانيا على استعداد للتنازل عن نفوذها لكي يتمتع المراكشيون جميعاً باستقلالهم الحقيقى

وهذا كلام لا يعوزه المنطق ، ولكنه ليس صحيحاً ، فقد اندلعت الحرب الأهلية فى أسبانيا ، وتلاحقت الحوادث بعد ذلك تلاحقاً خطيراً أدى إلى نشوب الحرب العظمى الثانية ، فخيل لأسبانيا الفاشستية — بعد الهزيمة الفرنسية — أن الفرصة الموموقة قد سنحت ، وأن مسألة استيلائها على مراكش أصبحت مسألة زمن فقط ، وفعلا اجتازت جيوشها الحدود إلى مدينة طنجة الدولية ، وكادت تقتحم منطقة مراكش الجنوبية ، ولكن كلا من سياسة ألمانيا حيال الأمبراطورية الفرنسية والمطامع التى كانت تجيش بها إيطاليا الفاشستية حال دون ذلك .

ووجدت أسبانيا نفسها مرة أخرى عاجزة عن تحقيق مأربها القديم ، فهى لن تستطيع الاستيلاء على مراكش إلى جانب المحور ، ولن تستطيع ذلك بالطبع إلى جانب الحلفاء . ومالت كفة النصر نحو الديمقراطيات ثم انتهت الحرب بانتصارها ، وانسحبت أسبانيا المعزولة عن مدينة طنجة ، وتلاشى بريق الأمل الذى أوهمها أنها قاب قوسين من الشروع فى خطتها التى ترمى إلى الاستيلاء على تلك البلاد

لقد حالف الفشل والإخفاق أحلام أسبانيا التاريخية ، وإذن فلتلتفت إلى المراكشيين لتصب عليهم نقمتها وغضبها . وإذا كان لعلم النفس دخل فى السياسة ، فقد خلف عندها هذا الفشل عقدة نفسية ، وطاقة مكبوتة ، وهى تتصرف اليوم حيال المراكشيين بإيحاء من تلك العقدة التى يزيد تعقدها فى الشعور الباطن طمع هائل وباع قصير .

وهكذا تجرد اليوم أسبانيا على مراكش سوط عذاب ، ولا تزيدها المقاومة إلا تمادياً فى القسوة والجبروت ، فهناك عند سفوح جبال الريف يتفنن أيتام النازية والفاشستية فى السفك والجلد والتنكيل لأسباب تافهة ، ويراقبون الضمائر وخلجات النفوس ، ويهددون الأحرار بالمحق ، ويتربصون الدوائر بالحركة الوطنية كلها .

أما الطامة الكبرى ، فهى الهجرة الأسبانية إلى شمال مراكش ، ذلك أن أسبانيا حينما أحست بالفشل يحاصر آمالها عمدت إلى فتح السدود أمام سيل الهجرة العرم ، فتدفق على البلاد وكأنه الطوفان . كان قوام السيل من العجزة والعاطلين ، فنشروا الأمراض ، وقاسموا المراكشيين ما أبقى لهم الجفاف من قوت ، وبلغت المأساة فى أول السنة الحالية ذروتها ، فكان الموتى يحملون فى عربات النقل من الشوارع تحت جنح الظلام!

هذه هى الناحية المنسية من المسألة المراكشية التى ارتبطت بفرنسا وحدها ، فخيل إلى الناس أن كل ما حاق بهذه البلاد هو نتيجة لأعمال فرنسا وحدها . كلا ، فإن المراكشيين يقاومون فرنسا ويقاسون عذابها مؤمنين بأن التخلص من الاستعمار لا يكون دون صراع ، وبأن الغلبة فى النهاية للايمان لا للقوة ، ولكن ما يحيق بمراكش من ختل أسبانيا ووعودها الكاذبة وتربصها وهول أطماعها ، وتصرفاتها الشاذة ، يضاعف أتعاب المراكشيين فى مقاومتها .

وليس هذا بالشيء الخفى ، فلدى كل دولة عشرات من التقارير عن الحالة فى مراكش قدمها إليها المراكشيون الأحرار ، وفى أمانة الجامعة العربية عشرات كذلك ، وكلها تشرح بالأرقام والصور ما حاق بمراكش العزلاء على يد أسبانيا الفاشستية المدججة بالسلاح ، دون أن يبدى أحد حراكا . ولكن المراكشيين سوف يمضون فى مقاومة هذا الطغيان إلى آخر رجل سواء ناصرهم أحد أو لم يناصرهم . فلأن يقال غداً إنهم انقرضوا دون شرفهم ، خير من أن يقال إنهم خفضوا هامهم للطغيان !

عبد المجيد بن جلون

الحـــلم والتحلم ...

للأســـتاذ محمود عزت عرفة

— ٤ —

« إنما العلم بالتعلم ، والحلم بالتحلم ، ومن يتخير الخير يعطه ، ومن يتوق الشر يوقه » حديث شريف

دواع إلى التحلم :

تدعو إلى التحلم عوارض كثيرة ، وأمور متعددة ، لأن التكلف كيفما كان خروج على الطبيعة ، وتحويل للغريزة ؛ وشيء من ذلك لا يكون أبداً وحده ، ولا يتم مجرداً عن العلل خارجاً على البواعث والأسباب .

فما يدعو النفس إلى التحلم ويطوّعه لها أن تستشعر القدرة على الانتصار فيفثأ ذلك من حر غضبها ، ويبدلها بقلقها هدوءاً ، وبجزعها تثبتاً واطمئناناً وحينئذ تنتفى بواعث الانتقام ، فيكون التحلمَ الذى يتطاول مع الزمن حتى يصير حلماً ، وأكثر ما يكون عفو الملوك لمثل هذا الباعث ، وقد مرت بنا أمثلة منه مختلفات . ويكاد يضع يدنا على هـذه الحقيقة وضماً قول المنصور لجعفر الصادق بعد عفوه عن أهل المدينة : إنك لتعلم أن قدرتى عليهم تمنعنى من الإساءة إليهم[1] .

ومن كلام بعض الحكماء : ليس الحليم من ظُلم فحلم ، حتى إذا قدر انتقم ؛ ولـكن الحليم من ظُلم فحلم ؛ حتى إذا قدر عفا .

ويقول عبد الله بن مسعود : انظروا إلى حلم الرجل عند غضبه ، وأمانته عند طمعه . وما علمك بحلمه إذا لم يغضب ؟ وما علمك بأمانته إذا لم يطمع ؟

وقد نصح معاوية لابنه يزيد فقال : عليك بالحلم والاحتمال حتى تمكنك الفرصة ؛ فإن أمكنتك فعليك بالصفح ، فإنه يدفع عنك معضلات الأمور ، ويوقيك مصارع المحذور ... ولعل هذا الخلق الكريم — العفو عند المقدرة — يعد أشرف مواقف

(١) انظر الحوار بتمامه فى الحلقة الثانية من هذا البحث .

الرؤساء ، وأدلها على أصالة النبل فى نفوسهم ، واستحواذ الكرم والفضيلة على طباعهم .

ومن البواعث على التحلم أيضاً مايكون من الاستهانة بالمسيء أو استضعاف شأنه ، حتى لكأنه المعنِىُّ بمثل قول « مسلم » :

فاذهب فأنت طليقُ عرضك إنه ... عِرضٌ عززْتَ به وأنت ذليل

وبمثل قول الآخر :

نجابك عرضُك منجى الذبابِ ... حمته مقاذيرُه أن يُنالا !

ولقد عفا مصعب بن الزبير — لمثل هذا الباعث — عن قاتل أبيه[1] . فقد روى أنه لما ولى العراق جلس يوماً لعطاء الجند ، وأمر مناديه فنادى : أين عمرو بن جرموز ؟ — وهو الذى قتل أباه الزبير — فقيل له : أيها الأمير ، إنه قد تباعد فى الأرض . فقال : أويظن الجاهل أنى أقيده بأبى عبد الله ؟ فليظهر آمناً ليأخذ عطاءه موفوراً ... !

وقال عمر بن الخطاب لأبى مريم السلولى قاتل أخيه زيد بن الخطاب — وكان قد كفّه عنه دينُه وورعه وعدالته — : والله إنى لا أحبك حتى تحب الأرض الدم ! قال : أفيمنعنى ذلك حقاً ؟ قال : لا . قال : فلا ضير ، إنما يأسى على الحب النساء !

ولقد يدعو إلى التحلم فرط السآمة من الانتقام ، ورغبة النفس عن التشفى لطول ما بلغت من ذلك حظها ، والشيء إذا زاد عن حده مال إلى ضده ، وللنفوس ثورة تجنح معها إلى السكون ، ومؤاخذة تميل بعدها إلى المتاركة ، ويبدو ذلك المظهر واضحاً فيما يسجله التاريخ من عفو المنصور بعد حروبه مع العلويين ، وتسامح المأمون بعد حوادث الفتنة بينه وبين أخيه الأمين . ولما انتهت فتنة ابن الأشعث أُتِى عبد الملك بن مروان بأسارى موقعة دير الجماجم[2] ؛ — وكانوا ممن خان عهده ونقضوا بيعته وقاتلوا جنده قتالا عنيفاً — فقال لرجاء بن حيوه : ما ترى ؟ قال : إن

(١) اشترك الزبير فى موقعة الجمل كما هو معلوم ، ثم اقتنع بخطئه فى مخاصمة على فنفض يده من الأمر وقفل راجعاً إلى المدينة — عام ٣٦ هـ — فلما كان بوادى السباع نزل فنام ، فجاء عمرو بن جرموز فقتله

(٢) حدثت قرب الكوفة عام ٨٣ هـ وفر بعدها عبد الرحمن ابن الأشعث إلى فارس فآواه إليه رتبيل ملك الترك ، وكاتبه الحجاج وتوعده إن لم يرسل إليه ابن الأشعث فقتل عبد الرحمن نفسه بأن تردى من أعلى القصر ، وحمل رأسه إلى الحجاج عام ٨٥ هـ .

الله تعالى قد أعطاك ما تحب من الظفر ، فاعط الله ما يحب من العفو ! فلم يكن بأسرع من أن فك قيودهم وعفا عنهم .

ونحن لا نكاد نفهم عفواً يصدر عن الحجاج — أظمأ ولاة المسلمين إلى الدماء — إلا على هذا الوجه ، ولمثل ذلك الباعث . فهو قد أبلى فى قتال ابن الأشعث أعظم البلاء ، وذاق أمام قواته مرارة الهزيمة وحلاوة الانتصار ، حتى قهره فى موقعة دير الجماجم فلما عرض الأسرى من رجاله على السيف مثل أمامه الشعبى(١) فى جملتهم . فقال : أصلح الله الأمير ، نبا بنا المنزل ، وأجدب الجناب ، واستحلسنا الخوف ، واكتحلنا السهر ، وضاق المسلك ، وخبطتنا فتنة لم نكن فيها بررة أتقياء ، ولا فجرة أقوياء . قال الحجاج : صدقت ، والله ما بررتم بخروجكم علينا ولا قويتم ... خلوا سبيل الشيخ !

وكان قوم يتحلمون على السفهاء إذا اعترضوهم بالأذى ، بل ربما تعرضوا إليهم عامدين طلباً لاكتساب الحلم وتدرباً عليه ، وقهراً للنفس على السكون ، وتعويداً لها على المسامحة . رُوى أن جعفر بن محمد الصادق كان إذا أذنب له عبد أعتقه . فقيل له فى ذلك فقال : إنى أريد بفعلى هذا تعلم الحلم ! ومن كلام الأحنف ابن قيس وكان من أحلم الناس : لست بحليم ولكنى أتحلم(٢) !

ويقول أبو عثمان الجاحظ فى بيانه وتبيينه : « كانوا يأمرون بالتحلم والتعلم ، وبالتقدم فى أشد التقدم » ، وحجة القائلين بهذا أن تكلف الفضيلة عند فقدها فضيلة . نعم ، يفرق الصوفية — فى المعنى وفى الدرجة — بين حالتى الوجد والتواجد مثلا ، ولكنهم لاينكرون المقام الأخير متى قُصد به التوسلُ إلى بلوغ الأول وتحصيله ، والأصل عند الجميع فى هذا ما يروى عن الرسول عليه الصلوات من قوله : إن لم تبكوا فتباكوا !

هذا وقد تحمل الشفقة على المسىء والرحمة له إلى مقابلته بالحلم ، إذا ما تقرر فى الذهن أن الإساءة لا تعدو أن تكون تصرفاً مريضاً مبعثه الجهل ، وأن صاحبه أولى بالعلاج منه بالعقوبة ، وهذا باعث كريم على التحلم لا يتسامى إليه من النفوس إلا أكرمها عنصراً وأزكاها جوهراً .

ولقد عوتب كسرى أنوشروان مرة على ترك عقوبة المذنبين فقال : هم المرضى ونحن الأطباء ، فإذا لم نداوهم بالعفو فمن لهم ؟ وقال إبراهيم التيمى : إن الرجل ليظلمنى فأرحمه ! قال الغزالى : « وهذا إحسان وراء العفو ، لأنه يشتغل قلبه بتعرضه لمعصية الله تعالى بالظلم ، وأنه يطالب يوم القيامة فلا يكون له جواب » .

وحكى الفضيل بن عياض قال : ما رأيت أزهد من رجل من أهل خراسان ، جلس إلىّ فى المسجد الحرام ثم قام ليطوف ، فسرقت دنانير كانت معه . فجعل يبكى . فقلت : أعلى الدنانير تبكى ؟ فقال لا ، ولكن مثلتنى وإياه بين يدى الله عز وجل ، فأشرف عقلى على إدحاض حجته ، فبكائى رحمة له !

وقد يحلمون — فى غير موضع الحلم — تجانفاً عن شبهة قد تعرض فى القصاص وإن كان عدلا ، والتماساً لرتبة من الخلق أسمى من هذا العدل ، وأبعد مما يتلبس به من تلك الشبهة . قال عمر بن عبد العزيز لرجل غلط غلطاً اشتد له غضبه : لولا أنك أغضبتنى لعاقبتك . وإنه فى هذا ليأتسى بجده ابن الخطاب ، وقد أشرنا — فيما سبق — إلى كفه عن السكران الذى شتمه ، وقوله : إنه أغضبنى ، ولو عزرته لكان ذلك لغضبى لنفسى ...

وربما يكون التحلم وسيلة لتحقيق غاية بعيدة ، خفية أو ظاهرة ؛ من تطييب نفس ، أو ربِّ صنيعة ، أو إتمام سالف جميل ، أو مراعاة قديم حرمة ، أو تمهيد لاستمالة وتكليف : وكان أصحاب الجنايات من الولاة والوزراء والعمال يدركون هذا الباعث ، ويعملون على إثارته فى نفوس الخلفاء إذا هم تعرضوا لسخطهم وصاروا موضع نقمتهم .

ولى معاوية روحَ بن زنباع ثم عتب عليه فى جناية فكتب إليه بالقدوم . ولما قدم أمر بضربه بالسياط ، فلما أقيم ليضرب قال : نشدتك الله يا أمير المؤمنين أن تهدم منى ركناً أنت بنيته ، أو أن تضع منى خسيسة أنت رفعتها ، أو تشمت بى عدواً أنت وقمته . وأسألك بالله إلا أتى حلمك وعفوك دون إفساد صنائعك . فقال معاوية : إذا الله سنّى عقد أمر تيسر ... خلوا سبيله .

ومن العفو لمثل هذا الباعث عفو الأمين عن الحسين بن على

---

(١) أبو عمرو عامر بن شراحيل ، كوفى تابعى عالم جليل توفى سنة ١٠٥ هـ .

(٢) يشبه هذا قول طلحة بن عبيد الله — وكان من الأجواد — : إنا لنجد بأموالنا ما يجد البخلاء ، ولكنا نتصبر !

مظاهر العبقرية
في الحضارة الاسلامية

للدكتور خليل جمعة الطوال

(تتمة)

في سائر الصنائع :

وقد أدخل العرب إلى أوربا أنواعاً كثيرة من الحبوب كالحنطة ، والقنب ، والتوت ، والأرز ، والزعفران ، والنخيل ، والليمون والبرتقال ، والبن ، والقطن ، وقصب السكر ، وما زال هواؤهم الفاسد يزفر بآلاتهم ومخترعاتهم التي كبلت الأيدي ، وشلت حركة الأعمال ، يعبق بشذا الأزهار الجميلة التي أخذوها عن الشرق .

وقد تعلم الغربيون منا صناعة تزيين الأقمشة الدمشقية ، وصناعة السختيان ، وأقمشة الحرير المزركشة بالفضة والذهب ، والشاش الموصلي والمخمل ، وعمل الحلويات والمشروبات وصناعة الجوخ(١) ، وعمل الجليد .

كلمة غوستاف لوبون :

أما وقد أظهرنا مواطن القوة في الحضارة العربية فيحسن بنا أن تقدم للقارئ : رأي لوبون في العوامل الرئيسية التي أدت بالغربيين للنيل من العرب ومن حضارتهم . فقد سأل لوبون نفسه هذا السؤال : لماذا غمط اليوم حق العرب وتأثيرهم ؛ وأنكر حسناتهم علماء عرفوا باستقلال أفكارهم ، وبعدهم عن مظنة الشك ؟ ...

ثم تقدم للاجابة وقال : « ... أرى أنه لا جواب على هذا السؤال غير ما أنا كاتب ، ذلك أن استقلال آرائنا هو في الواقع صوري أكثر مما هو حقيقي ؛ ونحن لسنا أحراراً على ما نريد في خوض بعض الموضوعات ، وهذا لأن فينا أحد رجلين الرجل

(١) حضارة العرب . لغوستاف لوبون ، والاسلام والحضارة العربية

ابن عيسى بن ماهان ، وكان قد انتقض عليه أيام حربه مع المأمون ، وخلعه وحبسه يومين في قصر أبي جعفر ، ثم بايع للمأمون . ولكن قام أسد الحربي وجماعة فدافعوا عن الأمين ، وفيلوا رأي الجند فيما صنعوه من طاعة الحسين بن علي . ثم قاموا فقاتلوا الحسين وأصحابه ، وكسروا قيود الأمين وأجلسوه في مجلس الخلافة ، ولما أتي بالحسين لامه على انتقاضه وذكره بسالف نعمته عليه وعلى أبيه (وكان أبوه قد قتل على رأس جيش الأمين في حربه مع المأمون) ، ثم قال الأمين : ما الذي استحققتُ به منك أن تخلع طاعتي ، وتؤلب الناس عليّ ، وتندبهم إلى قتالي ؟ قال : الثقة بعفو أمير المؤمنين ، وحسن الظن بصفحه وتفضله . قال : فإن أمير المؤمنين قد فعل بك ذلك ، وولاك الطلب بثأرك ومن قتل من أهل بيتك ! ثم دعا له بخلعة فخلعها عليه ، وحمله على مراكب وأمره بالمسير إلى حلوان . وخرج الحسين فهرب مرة أخرى في نفر من خدمه ومواليه ؛ فنادى محمد في الناس فخرجوا في طلبه حتى أدركوه فقتلوه ...

وقد يدفع بالنفس إلى التحلم مجرد ما تدركه من فضيلة الحلم ، وماتشاهد من جميل أثره على المتصفين به في الدنيا ؛ مع ماينتظرهم من الكرامة عند الله في الآخرة . ذلك أن الفضائل كلها صور جذابة حالية يكفي أن تهتدي الفطر السليمة إلى حقائق جمالها ، أو تشهدها على المتخلقين بها حتى تجنح إلى اكتسابها والتمسك بأسبابها . قال الأحنف بن قيس : تعلمت الحلم من قيس بن عاصم !

والذي يتفهم قول عليّ عليه الرضوان : أول ما يُعوّض الحليم من حلمه أن الناس كلهم أعوانه على الجاهل . لا يرى في الحلم إلا خيراً كله . بل من يعرف أن الله سبحانه سمى نفسه (الحليم) ولم يتسمَّ بالعاقل أو العالم يتبين له قدر الحلم بين الفضائل بحالة لا تدع له دون التمسك به من سبيل .

يقول الغزالي في كتاب ذم الغضب من سفر الإحياء : ينبغي أن يعالج هذا الجاهل — يعني المغضوب غير المتحلم — بأن تتلى عليه حكايات أهل الحلم والعفو ، وما استحسن منهم من كظم الغيظ ، فإن ذلك منقول عن الأنبياء والأولياء والحكماء والعلماء وأكابر الملوك الفضلاء ، وضد ذلك منقول عن الأكراد والأتراك والجهلة والأغبياء الذين لاعقول لهم ولا فضل فيهم .

(للحديث بقية أخيرة)

محمود عزت عرفة

الحديث الذي صاغته دروس التهذيب ، وعمل المحيط الأدبي والمعنوي في تنشئته . والرجل القديم المجبول على الزمن بخميرة الأجداد وبروح لا يُعرف قراره ، يتألف من ماض طويل ، وهذا الروح اللاشعوري هو وحده الذي ينطق في معظم الرجال ، ويبدو في أنفسهم بمظاهر مختلفة ، يؤيد فيهم المعتقدات التي اعتقدوها ، ويملي عليهم آراءهم ، وتظهر هذه الآراء بالغة حداً عظيما من الحرية في الظاهر فنحترم ، وقال : « ... وقد تراكمت الأوهام الموروثة المتسلطة علينا ، والنقمة على الإسلام وأتباعه في عدة قرون حتى أصبحت جزءاً من نظامنا ، وكانت هذه الأوهام متأصلة فينا ، كالبغض الدوي المستتر أبداً في أعماق قلوب النصارى لليهود » .

« وهناك سبب آخر ، وهو أن بعض أرباب الأفكار يرى أنه من العار أن يعتقد أن أوروبا النصرانية مدينة لأعداء دينها بخروجها من ظلمة الهمجية ... وليس من شك في أن العرب كانوا ممدنينا وأساتذتنا مدة ستمائة سنة .

« ولا جرم أن كثيراً من المؤرخين قد اندفعوا بسائق هذه الأوهام ، فأتوا بآراء بعيدة عن محجة الصواب في بيان فضل الحضارة الاسلامية ، ولا يزال التحامل على العالم الإسلامي القديم بحاله من الشدة ، ولذلك وجب أن يعاد النظر في تاريخ القرون الوسطى بجميع أجزائه التي لها مساس بانتقال المدنية القديمة إلى العصور الحديثة » .

ونود في ختام هذا الحديث . أن نثبت أقوال بعض عظماء المستشرقين في الحضارة الإسلامية العربية ، وذلك استجماعاً للموضوع من جميع نواحيه ، ودحضاً لأوهام الخصوم وحملاتهم ، بشهادة من لا تجمعهم بنا إلا صلة العلم ، ونزاهته الحقيقية ، دون أي آصرة أخرى من أواصر القربى ، وعلائق الدم ، وصلات الجنس :

يقول أوليري : « إذا محونا العرب من سجل الحضارة . تأخرت النهضة الأوربية قروناً عديدة » .

ويقول هـ . ج . ولز : « إن العرب هم الذين حفظوا كنوز الحضارة اليونانية من أن تتسرب إليها بكتيريا همجية القرون الوسطى ، وليس طبقة الاكليروس الذين خنقوا نشوء العلم بحجرهم الحرية الفكرية ، ولولا العرب لما قطعت المدنية هذا الشوط الواسع في مضمار التقدم والرقي » ، وقال أيضاً : « كانت طريقة العربي أن ينشد الحقيقة ، بكل استقامة وبساطة ، وأن يجلوها بكل وضوح وتدقيق ، دون أن يترك منها شيئاً في ظل الابهام ، وإن نشدان النور إنما تعلمناه من العرب وليس من اللاتين » .

وقال العلامة السياسي أوجين يونغ في كتابه يقظة الإسلام والعرب : « ... لقد كان للعرب ماض مجيد يدعو إلى الدهشة : ماض حربي ثم ماض في العلم الراقي والصنائع الزاهرة ؛ ذلك الماضي الذي اتخذته أوربا في نهاية القرون الوسطى دعامة لحضارتها بعد أن كانت نصف متوحشة » .

ولله در جوتيه إذ يقول : « إن محصول المدنية العربية في العلم يفوق محصول المدنية اليونانية كثيراً ، وذلك لأن العلم عندهم كان يقوم على أصول علمية ثابتة » .

وقال فلوريان : « انكب العرب في عصرهم الذهبي على مواصلة الدرس ، وترقية العلم والفنون ، حتى إن حضارتهم كانت العامل الأكبر والأول في نهضة القرنين الثالث عشر والرابع عشر للميلاد » .

وشهد بذلك العالم الفرنسي سيديو فقال : « تشهد آثار العرب ومخترعاتهم ومستكشفاتهم على أنهم كانوا أساتذتنا في كل علم وفن » ، وقد وافقه على هذا الرأي العلامة جورج سارطون إذ يقول : « يستخف بعض الغربيين بما أسداه العرب إلى الحضارة والمدنية ، ويزعمون أنهم لم يكونوا إلا حفظة للعلوم القديمة دون أن يضيفوا إليها شيئاً ... والحقيقة أن هذا الرأي فاسد من أساسه . فلولا العرب لتوقف سير المدنية . إذ كانوا مشعل الحضارة ، وأساتذة العالم في القرون الثلاثة وهي الثامن والحادي عشر والثاني عشر » .

وقال آرثر جلين ليونارد[1] : « يجب أن تكون حالة أوربا مع الإسلام بعيدة من كل هذه الاعتبارات الثقيلة ، وأن تكون حالة شكر أبدي بدلا من نكران الجميل المقوت والازدراء المهين ... فلقد وصلت المدنية الاسلامية عند العرب إلى أعلى

(١) إيقاظ الغرب للاسلام لهذلي تعريب البارودي

مستوى من عظمة العمران والعلم فأحيت جذوة المجتمع الأوربي وحفظته من الانحطاط . ولم نعترف ونحن نرى أنفسنا فى أعلى قمة من التهذيب والمدنية بأنه لولا التهذيب الإسلامى ومدنية العرب وعلمهم وعظمتهم فى مسائل العمران ، وحسن نظام مدارسهم ، لكانت أوربا إلى اليوم غارقة فى ظلمات الجهل » ، ويقول ويدمان فى هذا الصدد : « ... لا تقل خدمات العرب للغرب عن خدمة نيوتن وفراداى ورنتجن » .

ويقول غوستاف لوبون[1] : « ما كاد العرب يخرجون من صحارى بلادهم حتى اتصلوا بالمدنية اليونانية اللاتينية ، فتمثلوها ، وكان تمثلها يتطلب فكراً مهذباً ... ونحن نجهل ما كان لهم من حضارة راقية قبل الرسول (ص) فقد كانوا على اتصال بالتجارة مع العالم ، وكانت لهم ثقافة أدبية عالية قبل الإسلام ، ومن ثم حضارة علمية زاهرة بعد الإسلام » ، وقال أيضاً : « تفوق العرب فى المدنية على شعوب كثيرة ، وربما لم يقم من الشعوب من تقدمهم فى هذا السبيل » .

وشهد نوبرجر بالحضارة العربية شهادة ترفع الرأس عالياً . فقال : « فاقت المدنية العربية فى عصرها الذهبى مدنية رومية القديمة فى حيويتها » ووافقه دوسن فقال : « إن المدنية الغربية الأوروبية مدينة للمسلمين بميراث حكمة الأقدمين ، وأن فتوح العرب فى الإسلام لتعد من عجائب التاريخ ، ومما يدعو إلى العجب أيضاً أن يصبحوا سادة نصف العالم فى أقل من قرن ، وأن يصبحوا فى مئة سنة ذوى ثقافة عالية ، وعلوم راقية ، ومدنية زاهرة . بينا نجد الجرمانيين لما فتحوا الامبراطورية الرومانية قد قضوا ألف عام قبل أن يقضوا على التوحش ، وينهضوا لإحياء العلوم » .

وقال العالم يهودا وهو رجل عبرانى يدرس فى جامعة مجريط « أخذ الناس يدركون الآن أن أوربا فى القرون الوسطى مدينة للحضارة العربية التى اغترف من مناهلها المسلمون ، واليهود ، والنصارى على السواء . أخذ الناس الآن يفهمون أن العلوم الطبيعية والقوانين الأساسية فى الفلسفة ، والرياضيات ، وعلوم العمران كانت تستمد روحها فى زمن النهضة والاصلاح من ذلك المنهل العذب ألا وهو الحضارة العربية ، وصار علماء العصر كلما تعمقوا فى دراسة هذه الحضارة أدركوا أثرها البليغ فى حضارة اليوم ، وكشفوا مئات الكلمات الداخلة فى اللغات الأوروبية من أيام تلك الحضارة » .

وقال سينوبوس : « لامرية فى أن العالم الإسلامى كان أسطع نوراً من العالم الغربى . فكان المسيحيون يشعرون بنقصهم فى التهذيب ، ويعجبون بما يبدو لهم من غرائب الشرق ، وكان النازع فيهم إلى العلم يقصد مدارس العرب » .

هذه هى حضارة العرب الزاهرة التى يطعن عليها سرفيه وأمثاله من الخصوم والمتشيعين ، والتاريخ كفيل بأن يعيد نفسه ، فيتبوأ العربى غالى مكانته ، ويستعيد زاهى مدنيته .

وهذه أيضاً صورة أخرى من كتابنا « تحت راية الإسلام » الماثل للطبع . فعسى أن نكون قد أسدينا لهذه الأمة العزيزة بعض حقها علينا .

(شرق الأردن) **خليل جمعة الطوال**

(١) الاسلام والحضارة العربية ج ١ .

الحب والعمر ...

للأستاذ عثمان حلمى

من سحر عينيك للأبصار معجزة
يحوطها من جلال الحسن أسرارُ

يحارُ فى وصفها الراءون إن فتنت
أبصارهم ويحق إن همو حاروا

ومن حديثك أنغام لهـا أبداً
فى السمع والقلب إن حدثت أوتار

ما بين سمعى وقلبى من تدفقها   فى كل هامسة من فيك تيار

وفيك رقة نفس دون رقتها   إذا تأمل فيك العقل جبار

نوع من الضعف فيه محض قسوته
كلمس السيف سهل وهو بتارُ

وأنت غامضة كالليل واضحة   مثل النهار فإعلان وأسرار

ضدان من عجب فى نفسك اجتمعا
كالغصن يكمن فيه الماء والنار

أخاف منك على ما فيك من دعة
كأنما لك عندى فى الهوى ثار

وليس لى أى سلطان عليك وفى   صميم قلبى عليه منك قهار

وفى جبينك من صبح الشباب ومن
ضحاه من مغريات الحب أنوار

هدى لمن شاء فيها للغرام هدى
وفى الضلال له إن شاء أعذار

مالى أراك بشيب الرأس ضاحكة
متى كان مشيبى فى الهوى عار

أما لكهل إذا ما شاب مفرقه   مهما تجمل عند الغيد أنصار

لا تسخرى من غرامى إنه قدر
والحبُّ كالرزق والأعمار أقدار

لم يطفئ العمرُ من نيران عاطفتى
قلبى شباب وجسمى كاد ينهارُ

فليس للعمر فى شرع الغرام مدى
وليس فى الحب للعشاق أعمار

القدرُ الرطب !!

للأستاذ محيى الدين صابر

لعينيك أيامى ... ينازعها الحبُّ   كما نازع الأحلامَ فى قفرة ركبُ

طويت على قلبى هواك ... كأنه   لقلبى إذا جف الحنينُ به قلب

يشارفنى أفق بعينيك خلته   أساطير ملأى حين يسرى بها الغيب

كلانا به صمت تُطيفُ به الرؤى
أناشيدَ منها الشوق والحزن والعتب

ويرفض أحلاماً ذواهلَ فى دمى   كما رفض أسراباً مصبّغة سحب

أمدُّ بها نفسى وينهلُ خاطرى   ويعلو نى معنى على وجهها عذب

قرأت به وحى النبيين فى الهوى   كأنى نبى، أو كأن الهوى رب!

لقد عشتُ فى صحراء نفسى نخلة   يسامرنى جن ويحتضنى جدب

وتسفو على جذعى رياح عقيمة   وتعمر هاى الخضر أغربة شهب

وتمشى الرمال الصفر حولى حزينة   إذا مر سرب خاشع جاء فى سرب

فضائى كأيام المجانين ... شارد   فليس به أمن وليس به رعب!

فأصبحت أحيانى هواك فتفجرت   ينابيع فى عمرى يرف بها العشب

وغنت عذارى الطير فى ربوتى منى   كأن حياتى من تدفقها وثب

وأترف أيامى ووشى خواطرى   والهم قيثارى سناً نابض خصب

فيا ساحراً .. كفاه بعث ورحمة   وخمارة ... غنى بأفراحها الشرب

لعينيك مذخورُ الخلود بمهجتى   فأنت عليها فى الهوى قدر رطب

ويا لفتة يطوى زمانى عندها   خيالا ويغشانى بها زمن رحب

فإن تك أيامى ذنوباً ... فإنه   بحبك يا دنياى يُستغفر الذنبُ

حشدت مزاميرى لمنغومة الصبا   كأن جمالا قبلها صدقه كذب

لمحمومة الأشواق محرومة المنى
كما انهل من بين الصفا جدول سكب

شباب بخديها ... ومجد بجيدها   وجوع بعينيها فيا شهوة تصبو

وفى نهدها من يقظة الفن لفتة   وفى قدها سكر يميدُ له اللب

وفى شفتيها وقدةُ القلب فى الصبا   وفى شعرها أغرودة للهوى نهب

بها مثل ما بى من أسى فى كيانها   إذا ضمنا خطب يُفزِّعنا خطب

فإن رجعت فى الليل أنة موجع   تلفتَ فى عينى وفى مهجتى الحب

وتسمعنى فى الليل أشكو فتشتكى   وفى روحها جُرح وفى قلبها ندب

هى الزادُ . ما باليتُ بعد غرامها   أسلم إذا وفت حياتى أم حرب !



أعلام عابرة :

العلم والحياة

تأليف الدكتور مشرفة بك

للأستاذ عبد الفتاح البارودى

يتقمص الأستاذ الجليل الدكتور مشرفة فى معظم كتبه عدة شخصيات أهمها العالم والمدرس والأديب معاً ، وهذه ميزة قلما تتوافر لعالم غيره وهى فى هذا الكتاب بارزة جداً ، والظاهر أن ذلك راجع إلى أنه يتمشى مع المنهاج الموضوع لسلسلة « اقرأ » المقصود به صلاحيتها لأوساط الناس على اختلاف ثقافاتهم . فأولا :

شخصية العالم :

وتبدو واضحة لدرجة المحاباة ، محاباة العلم والعلماء . يقول : « إن العلماء أعرف الناس بالخير وأقربهم إلى الفضيلة » ويقول : « من الخطأ الفاحش أن يقال إن العلماء يقفون عند المظاهر المادية للعالم، فالعلماء إذ يبحثون عن الحقيقة يسمون بعقولهم إلى المنتهى » ولعل الدكتور يريد أن يصف العلماء كما يجب أن يكونوا أو يظن أنهم جميعاً على شاكلته أطهار أبرار ؛ وإلا فأهوال الحروب الحديثة لا تؤيد القول الأول ، وبعض الباحثين لا يؤيدون القول الثانى بل يقولون بمثل ما يقول به (تشارلتن) فى كتابه (فنون الأدب) : « إذا أردنا الدقة ألفينا العلم بعيداً كل البعد عن الحياة العملية ، إذ العلم لاينظر إلى المعرفة من وجهها النافع المفيد فهو لا يعنيه إلا المشكلات المجردة والمبادىء العامة . العلم مجرد فكر يقوم به العالم بغض النظر عما إذا كان يفيد أو لا يفيد » . وثانياً :

شخصية المدرس :

وطبيعى أن يكون الدكتور الفاضل مدرساً ناجحاً فى معظم كتابه لأنه متصل الوقت والجهد بالتدريس مشرفا وأستاذاً ومحاضراً . والذى لا شك فيه أنه تطبع لهذا على أن يتصور أن الأذهان التى يحادثها أذهان طلاب فى حاجة دائمة إلى شىء من الإعادة والتكرار والتشويق والمبالغة أحياناً كلما اقتضت الظروف . غير أن هذا التطبع قد اضطره هنا إلى بعض الإطالة ، وصحيح أن الإطالة من مثله مرغوبة محببة لأنها تحمل فى غضونها معلومات مفيدة أو طريفة غالباً إلا أن حجم هذا الكتاب لايحتملها نسبياً . فمثلا فى القسم الأول لكى يصل إلى تفهيمنا أن العلم يخدم السياسة يبدأ بأقوال شتى لمحمد عبده وأرسطوطاليس وبلاتون وسقراط، وإلى هنا يكون قداستنفد سبع صفحات من تسع صفحات مخصصة للقسم كله.وهكذا فى سائر الأقسام تقريباً . كذلك يطيل فى شرح بديهيات . فقد عقد قسما كاملا عن (العلم والمال) يدور حول تعريف أصحاب الأموال والعقارات أنهم لو استخدموا الطرق العلمية فى إدارة أموالهم وتنظيم عقاراتهم لزاد إنتاجهم .

وهناك سمة أخرى من سماته كمدرس نلمسها حين يدلى ببعض آرائه فى صيغة الأحكام المؤكدة التى لا تقبل المراجعة أو التعقيب من ذلك قوله : « السياسة أرفع الفنون البشرية منزلة وأعلاها قدراً » ! ! لماذا ياسيدى ؟ يقول : « لأن كل فن يرمى إلى تحقيق فائدة لنفر من الناس ، أما فن السياسة فغرضه نفع الناس جميعاً » ! ! وأظن أنه ليس هناك ما يمنع أى إنسان من أن يرفع من شأن أى فن يشاء . غير أن السائغ المحتمل أن الفنون كلها رفيعة المنزلة بلا تفاضل ، كما أنه ينبغى أن ترمى كلها إلى نفع الناس جميعاً ، قد يجوز التفاوت ولكن هل يجوز أن يعزى — إن وجد — إلى الفائدة من حيث كثرتها أو عمومها ؟ ! وثالثاً :

شخصية الأديب :

وما بنا من حاجة إلى وصف الدكتور بالأديب فإن كل إنتاجه يمت إلى الأدب الممتاز بصلة وثيقة تفسح له بين أساطين

الأدب مكانا محترماً . غير أن معظم العلماء الأفاضل حين يكتبون يميلون إلى زخرفة أسلوبهم بمـا تدلهم عليه (قواعد البلاغة) ، وهذا الأسلوب على هذا النحو هو الذى ينم على أنهم علماء

لذلك نجـد الدكتور تارة يصطنع « التضمين » اصطناعا يكاد يكون مقصوداً لذاته ، فيقول مثلا وهو يستحث الشرق لينهض كالغرب : « فإما خففنا معهم وإما تخاذلنا فقعدنا فرمونا بحجارة من سجيل نُجَـعِـلنا كعصف مأكول » ، ويقول وهو يسرد حقيقة علمية معروفة : « الجسم إذا كان فى موضع مرتفع فإن ذلك يكسبه مقدرة خاصـة على اكتساب الحركة فيكون كجلمود صخر حطه السيل من عل » .

وتجده تارة أخرى يستشهد بالشعر بغير ضرورة ملحة :

(العلم يرفع بيتاً لا عماد له) (على قدر أهل العزم تأتى العزائم)

بل يستشهد بشعر صوفى :

دواؤك فيـك وما تشعر وداؤك منـك وما تبصر
وتزعم أنك جرم صـغير وفيك انطوى العالم الأكبر

ولعل هذا كله للتنويع المقصود به الترفيه عن القارىء

غير أن الحق أنه بهذه الشخصيات المتنوعة قد استطاع أن يجمل من كتابه هذا سجلا شاملا لحسنات يرجع إليها المستفيد لمحض الاستفادة والمستفيد لغرض الاستزادة علماًوعملا على السواء؛ فمن حسناته أنه يصحح أخطاء شائعة بين الجمهور وأخرى بين الأوربيين وثالثة بين العلماء . إذ من الجمهور من يعتقد أن الدين يؤخر العلم والكتابُ ينفى ذلك بالحجة الدامغة والواقع والمنطق الاستقرائى . ومن الأوربيين من يعتقد أنهم أصحاب الفضل على العلم والكتابُ يبدههم بأن العلم إنمـا ازدهر قبل ميلاد الفكر الأوربى بمئات السنين . ومن العلماء من يعتقد أن(بيكون) هو الذى استحدث (المنهاج) والكتابُ يدلهم على أن المصريين والبابليين عرفوه من قديم . وهكذا . كتاب عظيم بمادته الغزيرة وحقائقه المدعمة بالأرقام حيثما كان للأرقام مجال . والمؤلف فطن غاية الفطنة إذ يعقب عليها بمـا يعود بالنفع على وطنه وعلى العالم جميعاً . فحينما يذكر مقدار الثروة المعدنية فى مصر يهيب بشباب العلم أن يفكر فى استخدامها وتنميتها ... وحين يقرر أن الجزء المنزرع من الوجه البحرى فقط (٢٢٠٠ كيلومتر) يمكن أن يسع سكان الأرض طرا (٢٠٠٠ مليون نسمة) بحيث يخص كل فرد حوالى عشرة أمتار يستطرد فيشير إشارة خفيفة عنيفة إلى أن هذا النصيب الفردى الضئيل لا يحصل عليه كثير من المصريين ، ثم يستطرد فينبه الأثرياء إلى أن حريتهم فى أموالهم يجب أن تخضع للشعور بالمسؤولية وتقدير الواجب . وهكذا .

ولو أن فى الكتاب أيضاً آراء سلفية تردد أقوال سقراط وأفلاطون وجلوكون عن الجمهورية والطيموقراطية والأوليجاركية وهى — بالمعانى التى قصدها — أسماء تكاد تكون معدومة المسمَّيات بل معدومة الوجود والأثر فى عام ١٩٤٦ الذى نعيش فيه ، ويحسن أن نعيش له وللأعوام المقبلة إلا أن الكتاب فى مجموعه كنز ثمين يزيد من قيمته أنه متجه كله نحو الخير والانسانية .

عبد الفتاح البارودى

جامعة فؤاد الأول

كلية الآداب

ترغب كلية الآداب فى شغل كرسى الفلسفة الحالى بها . وتقدم الطلبات باسم حضرة صاحب العزة عميد كلية الآداب فى ميعاد لايتجاوز أول نوفمبر سنة ١٩٤٦ . مع بيان المؤهلات الدراسية الحاصل عليها المرشح والمؤلفات والابحاث العلمية التى قام بنشرها . ويكون التعيين بعقد لمدة لاتتجاوز ثلاث سنوات وبماهية لا تتجاوز ٩٦٠ جنيه فى السنة . ٦٢٠٣